

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة البليدة 2 - علي لونيبي -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - الأمير خالد -

قسم: العلوم الإنسانية

شعبة: التاريخ

مطبوعة بيداغوجية بعنوان

تاريخ المغرب العربي الحديث ما بين القرنين 16-19م

المقياس: المغرب العربي الحديث ما بين القرنين 16-19م

التخصص: تاريخ عام

المستوى: السنة الثانية

السداسي: الثالث

إعداد الدكتورة ليلي غويني

السنة الجامعية:

1442هـ / 2020 - 2021م

محاور المقياس:

- (1) سقوط غرناطة وانعكاساته على الدول المغاربية.
- (2) أوضاع الدول المغاربية أواخر القرن 15م ومطلع القرن 16م.
- (3) المد العثماني في الحوض الغربي للمتوسط.
- (4) ظروف إلحاق الدول المغاربية (الجزائر، طرابلس، تونس) بالدولة العثمانية.
- (5) تطور نظام الحكم في الجزائر خلال الفترة العثمانية.
- (6) تطور نظام الحكم في المغرب الأقصى في فترة السعديين والعلويين.
- (7) تطور نظام الحكم في تونس.
- (8) تطور نظام الحكم في طرابلس.
- (9) علاقات الأقطار المغاربية الخارجية (المشرق العربي، إفريقيا، أوروبا).
- (10) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلدان المغرب الحديث.
- (11) العلاقات المغاربية الثقافية.

مقدمة:

ارتبطت الوحدة "المغرب العربي الحديث ما بين القرنين 16-19م" بمنطقة جغرافية مهمة جدا في التاريخ الحديث، وهي منطقة المغرب العربي والتي تعرف أيضا بـ: "بلاد المغرب" و "شمال إفريقيا"، وتدرس هذه الوحدة فترة زمنية حاسمة في تاريخ المنطقة، التي شهدت مع مطلع القرن العاشر الهجري، السادس عشر ميلادي تحولات كبيرة، لم تكن في بلاد المغرب فحسب؛ بل في البحر الأبيض المتوسط بشكل عام والذي تشكل المنطقة المدروسة جزء كبيرا ومهما منه، ففي شمال هذه البحيرة المتوسطية بدأت العقلية الأوربية تتبنى أفكارا جديدة، كان أهمها حب اكتشاف الآخر أو ما يسمّى بالكشوفات الجغرافية الأوربية، التي نتج عنها حركة استعمارية تزعمها الإسبان والبرتغال خاصة بعد القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس وسقوط آخر معقل للمسلمين بها "غرناطة" سنة 1492م، وما تبعه من غارات إيبيرية على سواحل بلاد المغرب.

وفي آسيا الصغرى وأرمينية كان نفوذ الدولة العثمانية يزداد خاصة بعد تمكنها سنة 1453م من فتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية وتحويلها إلى عاصمة لها، تلك المدينة التي أطلق عليها العثمانيون اسم "اسطنبول" والتي أصبحت تتزعم أكبر قوة إسلامية عرفها التاريخ الحديث وهي الإمبراطورية العثمانية، وتمكنت هذه الأخيرة من التوسع في المشرق العربي وإخضاع العراق وبلاد الشام والحجاز وغيرها من المناطق مع مطلع القرن السادس عشر.

كما استطاع العثمانيون في هذه الفترة ضم جل بلاد المغرب فأصبحت كل من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب (ليبيا حاليا) إيالات تابعة للدولة العثمانية، ما عدا المغرب الأقصى الذي بقي محافظا على الحكم المحلي والذي ظهرت به أسرتان حكمتاه بعد سقوط الدولة الوطاسية - خليفة المرينيين - وهما الدولة السعدية ثم الدولة العلوية التي بقيت تحكمه إلى يومنا الحالي.

وبالتالي، فقد عرفت منطقة بلاد المغرب خلال الفترة الحديثة التي امتدت لما يزيد عن ثلاثة قرون من الزمن أحداثا وصراعات بين مختلف الأطراف التي تواجدت بالمنطقة (الإسبان، الأندلسيون، المغاربة، العثمانيون) بحكم طبيعة الأحداث والصراعات السياسية والعسكرية، فأدّت إلى تغيير الخريطة

الجيوسياسية بالمنطقة، وعرفت كل من الجزائر وتونس وطرابلس الغرب والمغرب الأقصى تطورات في شكلها السياسي تبعا للظرفية الاجتماعية والإقليمية والمحلية.

الأهداف البيداغوجية للمقياس:

هذه مطبوعة بيداغوجية مخصصة لطلبة السنة الثانية ليسانس، وفقا لبرنامج وحدة "المغرب العربي الحديث ما بين القرنين 16-19م" المسطر للسنداسي الثالث من طرف شعبة التاريخ العام، وتتمثل الأهداف البيداغوجية لهذا المقياس في عدة نقاط، منها:

(1) أهمية هذه الحقبة الزمنية في تاريخ الجزائر بشكل خاص، وتاريخ بلاد المغرب بشكل عام، إذ هي مكتملة لغيرها من الوحدات المخصصة لطلبة السنة الثانية ليسانس ل م د في إطار شعبة التاريخ العام، التي تهدف إلى خلق تراكم معرفي لذا الطالب لاستكمال معارفه في كل الفترات التاريخية.

(2) يدرس التخصص تاريخ بلاد المغرب في الفترة الحديثة كل من الجزائر، تونس وطرابلس الغرب (ليبيا) سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا في ظل الحكم العثماني، كما يدرس أيضا المغرب الأقصى أثناء الحكم السعدي والعلوي، والعلاقات بين هذه الدول، ومنه فإنّ المقياس يهتم بالإقليم المغاربي والمتوسطي.

(3) أهمية التخصص في التاريخ المحلي، والذي تم خلاله إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية وأصبحت إيالة تابعة لها، وشهدت الجزائر خلال تلك الفترة تطورات سياسية واقتصادية حاسمة، وتغييرا في تركيبها الاجتماعية، بالإضافة إلى الازدهار الثقافي والعلمي، وكان لها تاريخ مشترك مع دول الجوار إقليميا، وعلاقات مع المشرق الإسلامي والدول الأوروبية متوسطة.

(4) يندرج الاهتمام بهذا التخصص في إطار إعادة كتابة تاريخ المغرب العربي الحديث عامة وتاريخ الجزائر خاصة في الفترة الحديثة لأهميته البارزة في الهوية الوطنية بأبعادها الإسلامية والعربية والأمازيغية، كما يمكننا من التعرف على جذور الروابط التاريخية والحضارية والثقافية بين دول المغرب العربي، ويمكننا من التعرف أيضا على طبيعة مواجهة المغرب العربي للحملات الصليبية.

(5) يسعى هذا المقياس في التكوين البيداغوجي للطلبة بغية اكتساب مؤهلات وقدرات علمية وثقافية في تاريخ المغرب العربي الحديث، في جوانبه السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والإستراتيجية، وذلك من خلال التعمق والتطرق إلى موضوعات تلمس المجتمع المغربي وتطوره خلال الفترة الحديثة، مثل البنية الاجتماعية والظواهر الطبيعية والاقتصادية للمغرب العربي، التطور السياسي للمغرب العربي أثناء الفترة الحديثة.

(6) تزويد الطالب بالمعارف المساعدة في التمكن والتعمق في هذا التخصص، مثل جغرافية المغرب العربي الطبيعية والاقتصادية، وببليوغرافية المغرب العربي، وتمكينه من دراسة النصوص التاريخية.

محاور المقياس:

تم تسطير محاور هذا المقياس بحسب المواضيع الأساسية التي تلمس تاريخ المغرب العربي خلال الفترة الحديثة، وهي مقسمة إلى إحدى عشر محورا، اشتمل المحور الأول الموسم بـ: "سقوط غرناطة وانعكاساته على الدول المغاربية" على الحديث عن أوضاع المسلمين الفارين من الاضطهاد الإسباني بعد سقوط غرناطة وما انجر عنه من لجوئهم إلى المغرب العربي والتدخل العثماني لمساعدتهم، خاصة بعد الطرد النهائي، وكيف أصبحت هذه الفئة القادمة من الأندلس بعد استيطانها في المنطقة أحد العناصر الفاعلة في المجتمع المغربي.

أما المحور الثاني المعنون بـ: "أوضاع الدول المغاربية أواخر القرن 15م ومطلع القرن 16م"، فقد تطرق إلى الحالة التي عاشتها المنطقة في هذه الفترة من ضعف الكيانات السياسية التي كانت تحكمه (الحفصيون، الزيانيون والمرينيون)، وما آل إليه الوضع من انقسام وتشتت ووقوع تحت نير الاحتلال الإسباني والبرتغالي.

وفيما يخص المحور الثالث: "المد العثماني إلى الحوض الغربي للمتوسط"، فقد اختص بمعطيات وإحداثيات الاتصال العثماني بهذه المنطقة بغية الجهاد البحري واشتمل كذلك عن انضمام المشرق العربي للدولة العثمانية باعتبار أننا لا نستطيع الحديث والتفصيل في انضمام المغرب العربي دون

الإشارة بشكل طفيف إلى حيثيات إلحاق كل من العراق وبلاد الشام ومصر للدولة العثمانية، الذي نتج عنه انضمام كل من الجزائر وتونس وطرابلس للدولة العثمانية.

أمّا المحور الرابع الموسوم بـ: "ظروف إلحاق الدول المغاربية (الجزائر، طرابلس، تونس) بالدولة العثمانية"، فقد جُعِلَ لتبيان مراحل وحيثيات الفتح العثماني للإيالات المغاربية الثلاث.

وشملت المحاور من الخامس إلى الثامن الحديث عن "تطور نظام الحكم" في الإيالات العثمانية الثلاث "الجزائر" و"تونس" و"طرابلس"، إذ إنه على الرغم من أنّها كانت كلها تابعة للدولة العثمانية إلا أنّه من الناحية السياسية عرفت تباينا في طريقة الحكم وطبيعته، وفي العهود التي مرت بها، بالإضافة إلى تبيان "تطور نظام الحكم في المغرب الأقصى في فترة السعديين والعلويين".

وقد شمل المحور التاسع "علاقات الأقطار المغاربية الخارجية"، سواء مع المشرق العربي الذي كان هو الآخر تابعا للدولة العثمانية، أو مع إفريقيا أو أوروبا. أمّا المحور العاشر فقد خصص للحديث "الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلدان المغرب الحديث"، باعتبار أنّه يستحيل التطرق إلى الأوضاع السياسية دون الإشارة إلى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

وأخيرا، جاء المحور الحادي عشر الموسوم بـ: "العلاقات المغاربية الثقافية"، لبيّن الروابط الفكرية والعلمية والدينية والثقافية التي كانت موجودة بين بلدان بلاد المغرب فيما بينهم، والتي عرفت ازدهارا طيبا ولم تتأثر بالظروف السياسية أو الصراعات الإقليمية.

وعلى الرغم من أنّ هذه الوحدة سداسية وليست سنوية إلا أنّها تعتبر من بين الوحدات الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها لما تعطيه من إفادة لطلبة السنة الثانية.

المحور الأول:

سقوط غرناطة وانعكاساته على الدول المغاربية

تمهيد:

كانت الأندلس لؤلؤة العالم الإسلامي، عرفت تطورا وازدهارا حضاريا وثقافيا وعلميا لا مثيل له، لكنها بدأت تفقد بريقها بسبب الأوضاع السياسية التي عرفتتها بعد سقوط الخلافة الأموية بها وقيام ما يعرف بملوك الطوائف، وتفكك الأندلس إلى وحدات صغيرة، ما جعلها لقمة سائغة للعدو الإيبيري الذي بدأ يستولي على المدن تلو الأخرى إلى أن بقيت مدينة واحدة فقط هي "غرناطة" التي لم تستطع أن تصمد أمام هجمة العدو، فاستسلمت المدينة لمصيرها المحتوم، وبسقوطها سقط آخر معقل للمسلمين بالأندلس، ومن خلال هذا: ما هي الأوضاع العامة للأندلس قبل سقوط غرناطة؟ ما هو مصير المسلمين بعد سقوط غرناطة وعقب الطرد النهائي من الأندلس؟

1- الأوضاع العامة للأندلس قبل سقوط غرناطة:

عاشت شبه جزيرة إيبيريا، والتي عرفت باسم "الأندلس" في ظل الحكم الإسلامي لها أزهى عهودها، من الناحية الثقافية والعلمية، فكانت مدنها تضاهي أكابر العواصم العالمية حاليا من ناحية التقدّم والرقي الحضاري والعمراني، وتمتّع المسلمون فيها بكل أشكال الترف والأبهة. لكن الحكم الإسلامي بها بدأ يضعف شيئا فشيئا، وخاصة بعد انهيار صرح الخلافة الأموية في الأندلس وما نتج عنه من تفكك البلاد إلى دويلات صغيرة متنازعة، عُرفت "بعصر ملوك الطوائف" فانقسمت الأندلس وقتها إلى عشرين دولة أو ما تسمى إمارة أو مملكة، ومن هذه الإمارات نذكر: دولة بني عباد بإشبيلية، دولة بني جهور بقرطبة، دولة بني الأفطس في بطليوس، دولة بني يحيى في لبلة، دولة بني مؤرّين في باجة وشلب، دولة بني هارون في شنتمرية الغرب، دولة بني ذي النون في طليطلة، دولة بني مناد في غرناطة، دولة بني برزال في قرمونة، دولة بني خزرون في أركش، دولة بني يفرن في رندة، مملكة أميرية، مملكة مرسية، مملكة بلنسية، إمارة شنتمرية الشرق، مملكة سرقسطة، وغيرها من الدويلات والإمارات¹.

¹ علي حسين الشطشطا، نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، 2001م، ص 17.

وفي مقابل التفكك الذي عرفه الوجود الإسلامي في الأندلس، كانت الممالك النصرانية فيها تزداد قوّة، حتّى غدت تشكّل خطراً على المسلمين، وفي ظل هذا الوضع استغل الملك الإسباني ألفونسو السادس الفرصة، وأخذ يتدخل في شؤون تلك الدويلات الأندلسية ويثير الفتن بينهم، ثم أعلن الحرب على طليطيلة في سنة 472هـ/1079م، واستمرت الحرب ستة أعوام سقطت بعدها المدينة في يده سنة 477هـ/1085م، وقد نتج عن ذلك تدخل الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين وعبوره من بلاد المغرب إلى الأندلس، وإحاقه هزيمة نكراء للملك الإسباني ألفونسو السادس في معركة الزلاقة الشهيرة سنة 479هـ/1086م، ثم بداية فترة حكم المرابطين وبعدهم الموحيدين في الأندلس وسعيهم نحو توحيد شملها بغية مجابهة المد المسيحي، وقد كان هذا العبور المرابطي ثمّ الموحيدي سبباً في تأخير سقوط الأندلس لما يقارب القرنين ونصف من الزمن¹.

وعلى الرغم من ذلك بقيت الممالك النصرانية تسعى جاهدة لإنهاء الوجود الإسلامي فيها، وكانت معركة العقاب سنة 609هـ/1212م التي انهزم فيها السلطان الموحيدي محمد الناصر أمام ألفونسو الثامن ملك قشتالة وحلفائه سانشو السابع ملك نافار، وألفونسو الثاني ملك البرتغال، وييدرو الثاني ملك أراغون، نقطة تحوّل في تاريخ الأندلس، وبداية مرحلة جديدة للتوسع المسيحي فيها، فسقطت العديد من القواعد الأندلسية في أيدي الإسبان، أهمها سقوط مدينة قرطبة سنة 633هـ/1235م وبلنسية 636هـ/1239م وإشبيلية 649هـ/1248م، ثم تلتها مدن وحصون أخرى، مثل: مرسية، وشاطبة، وجيهان وانتقلت عاصمة قشتالة من طليطيلة إلى إشبيلية. وكانت قشتالة وأراغون تتعاونان في مهاجمة المدن الأندلسية والقضاء على الدولة الإسلامية².

وإستمر سقوط الإمارات واحدة تلو الأخرى في أيادي الجيش القشتالي، فعاش المسلمون في المدن التي وقعت تحت حكمهم³، مضطهدين فوجدوا أنفسهم مخيرين بين: البقاء تحت حكم

¹ - الشطشاط ، المرجع السابق ، ص ص44-45.

² - علي محمد الصلابي، دولة الموحيدين ، مكتبة حسن العصرية، بيروت ، د.ت، ص 201 وما بعدها ؛ الشطشاط ، المرجع السابق، ص ص46-48.

³ - الشطشاط، المرجع السابق، ص ص 22، 55، 61.

القشتاليين الذين أطلقوا عليهم اسم المدجنين¹، أو الهجرة إلى حواضر بلاد المغرب. وتتميز هذه الهجرة بالتفاوت في عددها، خصوصا بعد سقوط المرية وقادس سنة 1489م²، وكانت أهم جالية في هذه الهجرة، أشرف القوم والأسر الوجيهة وفطاحل العلماء. وكان النازحون يفضلون الاستقرار في المدن الساحلية والعلمية كالقل والرباط وفاس القريبة من الأندلس على أمل العودة³.

في حين اختارت الجماعة الأكبر من الأندلسيين الهجرة نحو المراكز الأندلسية التي ما زالت قائمة، خاصة منها غرناطة التي ضمت وحدها أكثر من نصف مليون نفس، فقد تدفق الوافدون إليها منذ أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر ميلادي، من بلنسية ومرسية وقرطبة وغيرها من المناطق⁴، وفي ظل هذه الظروف، انحصر الوجود الإسلامي في رقعة جغرافية ضيقة، احتوتها مملكة غرناطة في الطرف الجنوبي من الجزيرة الأندلسية، هذه المدينة التي حكمها ملوك بني الأحمر في الفترة ما بين (635-897هـ / 1238-1492م).

وفي المقابل قويت شوكة القشتاليين خصوصا بعد الزواج السياسي عام 1469م الذي تم بين فرديناند ملك أراغونة وإيزابيلا وارثة عرش قشتالة، وبهذا التوحد المسيحي، اختتمت المأساة الأندلسية باستيلاء القشتاليين على غرناطة سنة 1492م، آخر الحواضر الإسلامية في إسبانيا- بعد حصار دام أكثر من سبعة أشهر، استطاع جيش فرديناند إسقاط غرناطة آخر الحواضر الإسلامية، ووقعت معاهدة الاستسلام مع ملك غرناطة أبي عبد الله الغرناطي التي نصت على تسليم المدينة مقابل احترام

¹ - المدجن هو المسلم الذي عاش تحت حكم الممالك المسيحية في إسبانيا بعد اشتداد حركة الاسترداد، وهو مشتق من دجن أي قام خاضعا لمكان، غير أنه تحريف على ألسنة الإسبان في بعض الأحيان إلى "دجل" و"دجر"، فصار الموصوف به يسمى "مدجلا" و"مدجرا" فقليل "موديجار"، وشاع بهذا، لفظ الدجن والمدجنين في الكتابات العربية، منها: كتب النوازل وعلى رأسها كتاب "المعيار" للونشريسي. انظر: مولاي أحمد الكامون، هاشم السقلي، التأثير الموريسكي في المغرب، ط1، مركز = الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، المغرب الأقصى، 2010م، ص 32؛ عادل سعيد بشاوي، الأندلسيون المواركة، مطبعة مطابع انترناشيونال برس، القاهرة- مصر، 1983م، ص 13.

² - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط1، مطبعة مصر، القاهرة، 1949م، ص 60-62.

³ - مرمول كرنجال، إفريقيا، جزآن، ج2، ترجمة محمد حجي، وآخرون، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط- المغرب الأقصى، 1989م، ص 362؛ الكامون، السقلي، المرجع السابق، ص 96-98 وما بعدها.

⁴ - الشطشاط، المرجع السابق، ص 57.

المسلمين في أملاكهم وأعراضهم وعقيدتهم¹، وانتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس، وطويت الصفحة المجيدة المؤثرة من تاريخ الإسلام.

2- أهم المتغيرات التي عرفتها إسبانيا مع نهاية القرن الخامس عشر:

تعتبر نهاية القرن الخامس عشر بالنسبة لتاريخ أوروبا عامة، وإسبانيا خاصة، هي الحقبة التي عرفت نقلة ثورية في الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والدينية، حيث عرفت تغيرات واسعة بدلت من مظهرها، خصوصا أوروبا الغربية. ومن أهم تلك المتغيرات، نذكر:

أ- أبعاد سقوط غرناطة سنة 1492م:

على الرغم من أنّ السقوط غرناطة كان سنة 1492م، وبه كان انتهاء النفوذ الإسلامي في الأندلس، إلا أنّه كان له أبعاد دينية وتاريخية تعدّت مجرد رغبة الإسبانين في اقتلاع جذور المسلمين من الأندلس، وقد تمثلت تداعيات هذا الحدث فيما يلي: أولها الرغبة في الانتقام من المسلمين، بعد فتح القسطنطينية من طرف العثمانيين عام 1453م وما نتج عنه من صدى في نفوس المسيحيين وخاصة البرتغال وإسبانيا؛ مما زاد وتيرة التشدد لديهم، فكان إطاحة غرناطة آخر معقل المسلمين في الأندلس ردا على اسحواذ المسلمين على قسطنطينية. ثانيها التوحد السياسي الذي عرفته إسبانيا بتحالف فرديناند وإيزابيلا بعد الزواج فبحكم امتلاك إيزابيلا لقشتالة وموقعها الاستراتيجي، فكانت تتطلع للتوغل في المحيط الأطلسي، كما كانت تسعى إلى التوسع نحو العالم الجديد، أما فرديناند والذي يحتكم على صقلية وجزر البليار وسردينيا، فقد كان يتطلع دائما لتأمين المنفذ البحري بين إشبيليا وصقلية².

¹ للمزيد حول البنود: أنظر: عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنتصرون المورييسكيون الأندلسيون، صفحة مهمة من تاريخ المسلمين في الأندلس، ط1، دار الصحوة، القاهرة- مصر، 1991م، ص ص 21-30.

² نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، رسالة دكتوراه، تخصص التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1987م، ص 33.

وفي الحقيقة لم يسفر هذا الزواج على التحالف السياسي فحسب بل أسفر على تحالف ديني، فقد اتفق الملكان الكاثوليكيان المتعصبان مع الكنيسة الكاثوليكية على ملاحقة المسلمين إلى المغرب الإسلامي، واتخاذها ذريعة لاحتلال سواحله، وفي الواقع كانت الحرب الإسبانية مع المسلمين في الأندلس، وسقوط غرناطة وما أتبعه من تطلع إلى احتلال بلاد المغرب في الحقيقة، هو حروبا دينية، امتدادا للحروب الصليبية التي عرفها المشرق الإسلامي فيما مضى. كما أن ملوك إسبانيا والبرتغال كانت عندهم دوافع اقتصادية أخرى، حيث كانت خططهم تقتضي التحكم في خيرات المنطقة عن طريق الاستحواذ على الطرق التجارية لإفريقيا عبر المغرب لجلب الذهب الذي شح في أوروبا¹.

ب - الكشوفات الجغرافية:

كان دافعهم الأساسي هو التخلص من الاحتكار الذي كان يفرضه المسلمون على التجارة والسلع القادمة من الهند والصين، وكسر الوساطة الإيطالية في التبادل التجاري بينهم وبين المسلمين، بالإضافة إلى نشر المسيحية، كما دفعهم حبهم للمغامرة واكتشاف المجهول، إلى الرغبة في معاينة ما وصلهم من روايات خرافية وأساطير عن العالم الإسلامي وآسيا على لسان بعض البحارة والمغامرين أمثال ماركو بولو (Marco Polo).

ومع تطور الملاحة البحرية لديهم واستخدامهم لبعض الآلات الجديدة؛ كان البرتغاليون ثم الإسبان هم السباقين في هذا الميدان، إذ أرسلوا العديد من الحملات الاستكشافية بقيادة أفضل ملاحيههم، كان أهمها في بداية القرن السادس عشر، الحملة التي قادها برثلميو دياز (Pertimio Deyaz)، مكتشف رأس الرجاء الصالح سنة 1488م، وفاسكو دي جاما (Vasco da Gama)، الذي عبر المحيط الهندي، واكتشف طريقا آخر للوصول إلى الهند سنة 1498م، والحملة التي قادها الرحالة الجنوي الشهير، مبعوثا من طرف الإسبان؛ كريستوف كولومب (Crestof Colomb)، الذي اكتشف العالم الجديد أمريكا سنة 1492م، فكان للكشوفات الجغرافية أثر كبير ودور بالغ في تغير النمط الاقتصادي - الذي كان سائدا في العصور الوسطى - إلى منهج مختلف في التجارة وفتح

¹ -Braudel Fernand, **La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Louis philippe 2**, T2, Paris, 1966, p424.

أسواق جديدة، وانتقال التجارة من مسالكها القديمة إلى البحار الغربية¹، وتمثل خروج الأوربيين من محيطهم الضيق، والسعي لاكتشاف مناطق خارج القارة الأوروبية.

وقد أدت المتغيرات التي طرأت على العقلية الأوروبية عامة والإسبانية والبرتغالية خاصة مع نهاية القرن الخامس عشر ميلادي، إلى انتقال الصراع الإسلامي - المسيحي من شبه الجزيرة الإيبيرية إلى بلاد المغرب، وقيام حركة استعمارية واسعة تمّ من خلالها احتلال عدد من المدن والمراكز الساحلية فيه.

3- تداعيات سقوط غرناطة على بلدان المغرب:

كان لسقوط غرناطة أثر كبير على كل منطقة غرب البحر المتوسط، وفي تغيير موازين القوى، فقد أدى إلى تزايد وتيرة الهجرة الأندلسية نحو مدن بلاد المغرب، واتخاذ الإسبان والبرتغاليين ذريعة ملاحقة الأندلسيين الفارين لاحتلال أهم المدن الساحلية لبلاد المغرب، ومن ثمّ ظهور القوة الإسلامية العثمانية في المنطقة حاملة لواء الجهاد في حوض البحر المتوسط، بغية إنقاذ المورسكيين² في الأندلس ونقلهم إلى سواحل بلاد المغرب³، وتحرير المنطقة من الاحتلال الإسباني - برتغالي، وبالتالي: فقد أحدث سقوط غرناطة ثلاث تحولات كبرى، أولها: هجرة الأندلسيين من بلادهم إلى المدن المغربية، ثانيها: الحركة الاستعمارية الإسبانية - البرتغالية، وانتقال الصراع الإسلامي - المسيحي إلى بلاد

¹ - عن الكشوفات الجغرافية، انظر: عبد العزيز سليمان نّوار، محمود محمد جمال الدّين، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، د ط، دار الفكر العربي، مدينة نصر - مصر، 1999م، ص ص 53 - 82؛ أشرف صالح محمد سيد، أصول التاريخ الأوربي الحديث، ط 1، دار واثا للنشر الرقمي، الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، الكويت، 2009م، ص ص 64 - 95؛ جلال يحيى، أوروبا في العصور الحديثة، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، =الإسكندرية- مصر، 1981م، ص ص 319 - 380؛ عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث، د ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية- مصر، 1992م، ص ص 80 - 99؛ عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، ج 1، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997م، ص ص 185 - 277.

² - حول مسعى الدولة العثمانية لإنقاذ مسلمي غرناطة. انظر: عبد الجليل التميمي، «الدولة العثمانية والقضية الموريسكية»، المجلة التاريخية المغربية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ع 23 - 24، زغوان - تونس، 1988م، ص ص 188 - 195؛ غلاني السبتي، «دور البحرية الجزائرية والعثمانية في إنقاذ مسلمي الاندلس 1492-1640م»، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة باتنة، ع 14، الجزائر، 2015م، ص ص 72، ومابعدها.

³ - Charles André Julien, **Histoire de L'Afrique du Nord des origines à 1830**, Paris, 1951, T2, P254.

المغرب، وثالثها: التدخل العثماني لإنقاذ مسلمي الأندلس وطرد المحتلين من المدن المغربية، وتغيير موازين القوى في الحوض الغربي للمتوسط، وباعتبار أنّ الحدثين الثاني والثالث يشكلان محورين مستقلّين في برنامج هذه الوحدة، فسيتمّ الاقتصار في هذا العنصر على تزايد الهجرة الأندلسية لمدن بلدان المغرب.

عرفت الهجرة الأندلسية إلى بلاد المغرب في هذه المرحلة، عدة أسباب ارتبطت بمعطيات العصر، المتمثلة بأوضاع الأندلسيين في إسبانيا بعد سقوط غرناطة، واشتداد الصراع المسيحي-الموريسكي¹، الذي شكل الواقع الاجتماعي المُعاش في الأندلس. خصوصا أن الإسبان لم يحترموا بنود معاهدة استسلام غرطانة التي تقضي بعدم المساس بعقيدة الأندلسيين وممتلكاتهم وأعراضهم، وعلى العكس من ذلك، اتبع الإسبان سياسة التنصير القهري، وتم إصدار مجموعة من الإجراءات التعسفية²؛ في محاولة منهم لإدماج الأندلسيين في المجتمع المسيحي، بالإضافة إلى ما عرفه المسلمون من

¹ - أصل المصطلح في اللغة اللاتينية الإغريقية مشتق من كلمة (Mauri)، وتعني: السكان ذو البشرة السوداء، أو سكان المغرب، ويقال أنّها كلمة إسبانية (Morisco) تطلق على المسلمين الذين بقوا بعد سقوط غرناطة وتعمّدوا، وقد أصبح هذا الاسم متدولا منذ سنة 1499، وكلمة الموريسكوس استعملت للتصغير، تعمدا من الإسبان إهانة الأندلسيين بتصغيرهم وتحقيرهم بهذا الاسم، ومع هذا بقي هذا الاسم مستعملا في جل الكتابات التاريخية لحد اليوم. انظر: الكامون، السقلي، المرجع السابق، ص 33-35؛ جمال يجاوي، سقوط غرناطة ومآسة الأندلسيين 1492-1610م، دط، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة- الجزائر، 2009م، ص ص 42-44.

² - كان من أبشع ما ارتكب من جرائم عقب سقوط غرناطة على مسلمي الأندلس، إحراق المصاحف وعشرات الألوف من أمهات الكتب، وإجبار النساء على كشف وجوههن، وفرض تعلم اللغة القشتالية على المسلمين، وكذا تحميمهم على اتباع العادات القشتالية وخاصة في احتفالات الزواج، كما فرض عليهم ترك أبواب بيوتهم مفتوحة أيام الأعياد الإسلامية، وحوّلت المساجد إلى كنائس، واتخذ الإسبان في محاكم التفتيش أسلوب تتبع الموريسكيين. ففي سنة 907هـ/1501م أصدر قرار بتخيير المسلمين بين التنصير أو ترك البلاد، وفرضت عليهم ضرائب كبيرة، وفي عام 908هـ/1502م أصدر قانون التعميد، وفتح باب محكمة التفتيش على مصراعيه، وبتولي الملك شارل الخامس عرش إسبانيا؛ تم نقل محاكم التفتيش من مدينة جيان إلى غرناطة، وأصدرت أحكام مرسوم 1526م، وحافظ الملك فليپ الثاني على استراتيجية سابقة، ومن جملة الأحكام الصادرة في عهده تفعيل آلية محاكم التفتيش بزيادة بنود جديدة، منها: منع حمل المورسكين السلاح من خلال مرسومي 1563م و1566م. انظر: دون باسكوال بورونات اي برتشيّا، الموريسكيون الإسبان وواقع طردهم، ترجمة كنزة الغالي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2012م، ص ص 127-128، 181؛ شطشاط، المرجع السابق، ص 68؛ علي مظهر، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها وفيه آخر صفحة لتاريخ المسلمين بالفردوس الاسلامي المفقود، المكتبة العلمية، دار الطبعة، مصر، 1947م، ص 51.

تعدّي على أعراضهم وسبي لنسائهم، وتعدّ على حرياتهم الشخصية، وانتهاك لكرامتهم، ففضل جمع من الأندلسيين في السنوات الأولى من سقوط غرناطة الهجرة إلى بلاد المغرب. فاستقبلت مدينة بادس أهل مالقة، وتوافد أهل المرية على تلمسان، فيما اختار أهل الجزيرة الخضراء التوجه إلى طنجة، أما أهل دانية، وجزيرة صقلية فاختراروا تونس ومدينة الجزائر، والقيروان¹. كما غادر عدد لا يستهان به إلى فاس بصحبة الأمير أبي عبد الله الغرناطي مباشرة بعد سقوط غرناطة².

أما من لم يسعفهم الحظ للهجرة فعاشوا في هذه المرحلة، حالة تأرجحت بين القمع ومحاولة الدمج والتنصير، فعبروا عن رفضهم بتمردات وثورات من أعنفها ثورة البشرات عام 1568م، التي كانت عارمة وتلقى الموريسكيون إمدادات من المغاربة والعثمانيين، وبقيت هذه الثورة متواصلة في كل أنحاء غرناطة، ودامت مدّة سنتين. وتعتبر هذه الثورة من أعنف الثورات في تاريخ الموريسكيين، وذلك للتغير الذي طرأ على التوزيع الجغرافي لموريسكيي غرناطة، حيث تم إجبارهم على الترحيل القسري من مملكتهم الأصلية، ومن تم دخلوا في عملية تنقل دائمة من الشمال نحو جنوب أراضي أراغون إلى أن فرض عليهم الطرد النهائي³.

وأمام هذا الضغط الذي مس دينهم وأعراضهم وحياتهم، خصوصا بعد إجبارهم على اعتناق المسيحية؛ توجه مسلموا غرناطة بطلب فتوى حول مسألة الهجرة أو البقاء، فكانت فتوى البقاء تصدر لها المفتي أحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني، الذي قدم لهم أسلوبا للعبادة وممارسة شعائهم الدينية دون حرج⁴. وأما فتوى الهجرة؛ فقد كانت لأحمد الونشريسي الذي كان جوابه واضحا في

¹ - بيّن صاحب كتاب نبذة العصر بشكل دقيق توافد الأندلسيون إلى مدن المغرب. أنظر: مجهول، كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، ضبط وتعليق الفريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة والنشر، القاهرة- مصر، 2002م، ص 48.

² - المصدر نفسه، ص 47.

³ - عبد الله محمد جمال الدين، المرجع السابق، ص 79-155؛ دون باسكوال بورونات اي برتشيلا، المرجع السابق، ص 192.

⁴ - أصبح الموريسكيون يمارسون تعاليمهم الدينية تحت ما يعرف بالنقية، وهي الإدارة والكتمان إسلامهم، أي اعتناق المسيحية ظاهريا والتمسك بالإسلام باطنيا. انظر: مفيدة بن يوسف، الجالية الأندلسية بالجزائر وتأثيراتها الحضارية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني القرنين السادس عشر - السابع عشر، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر 2 بوزريعة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم تاريخ، 1010-2011م، ص 63؛ يحياوي، المرجع السابق، ص 55.

مسألة تحريم البقاء بدار الكفار، قائلا: «لا تجوز الإقامة إلا في حالة العجز عن الهجرة... ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء...»¹، فكان لصدور هذه الفتوى أثر بالغ في ارتفاع وتيرة الهجرة، طيلة القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، ومن ثم ارتفعت أعداد المهاجرين إلى الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، متوجهين إلى سواحل المغرب.

ومع مطلع القرن الحادي عشر هجري السابع عشر ميلادي عرفت اسبانيا إفلاسا في خزintها نتيجة لحروبها مع الدول الأوروبية، فتوهم فليب الثالث أن أفضل حل لتوفير المال إصدار قرار الطرد النهائي للموريسكيين، وبالتالي فرض عليهم ضريبة التنقل وكراء السفن، واستحوذ على أملاكهم بشكل نهائي، فأصدر قرار النفي في 22 سبتمبر 1609م².

كان انتقال الموريسكيين إلى بلاد المغرب بأعداد متفاوتة وكبيرة عن طريق الموانئ، أليكونت وبيناروت³. كما استخدمت الموانئ الفرنسية التي كانت تستقبل الموريسكيين الذين يرغبون في الهجرة إلى شمال إفريقيا، منها: ميناء سان جون، تولوز، ومن هناك كانوا يتوجهون إلى المغرب ومن (Agde) بمرسيليا، كانوا يتوجهون إلى تونس والجزائر⁴.

فعرفت الهجرة في هذه المرحلة توافد أعداد هائلة من الموريسكيين والذين مثلوا الفئة العاملة بالدرجة الأولى واستقروا في جل المدن الساحلية لبلاد المغرب. حيث يذكر المقرئ في هذا الصدد، أنه خرج ألوف إلى فاس، وأخرى إلى تلمسان، ووهران، وإلى تونس التي عمروا قراها الخالية، ومكثوا

¹ - ذكر الونشريسي في موضع آخر: « فالواجب على كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر؛ السعي في حفظ رأس الإيمان بالبعد والفرار عن مساكنة أعداء الرحمن... لأن مساكنة الكفار من غير أهل الذمة، والصغار لا تجوز ولا تباح ساعة من النهار...». أنظر: أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني الماكي، أسنى المتاجر وبيان أحكام من غلب على وطنه النصاري ولم يهاجر وما ترتب عليه من العقوبات والزواج، تحقيق حسين مؤنس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1986م، ص 26، 59.

² - أسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، 1980م، ص ص 266، 269.

³ - عبد القادر فكايير، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث العهد العثماني 1518-1830، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة- الجزائر 2018م، ص 127.

⁴ - Henri, Lapeyre, *Géographie de L'Espagne Morisque*, S.E.V.P.E.N. Paris, 1959, P208

بتطوان، وسلا، ومتيجة، والجزائر، ويقص معاناتهم في تعرضهم لقطاع الطرق، وتسلب الأعراب عليهم، ويذكر أن جماعة اختارت الهجرة إلى القسطنطينية ومصر والشام¹.

¹ - شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، مج4، دط، دار صادر، بيروت- لبنان، 1408هـ/ 1988م، ص 528.

المحور الثاني:

أوضاع الدول المغاربية في أواخر
القرن الخامس عشر ومطلع القرن
السادس عشر الميلادي

تمهيد:

عرفت بلاد المغرب بعد سقوط صرح دولة الموحدين وتفكك وحدتها الجغرافية قيام ثلاث دول: الدولة الحفصية، الزيانية، المرينية، اقتسمت بلاد المغرب فيما بينهما، ودخلت هذه الدول في حروب وصراعات أدت في نهاية الأمر إلى ضعفها ودخولها في حالة من الفوضى والتمزق، خاصة مع نهاية القرن الخامس عشر ميلادي، وأمام ضعف قوتها السياسية، وتشتت شملها، أصبحت هدفا سهلا أمام الأطماع الخارجية، وكانت أكبر نتيجة لهذا؛ الهجومات الإيبيرية على طول ساحله وإحتلال مدنه.

1- الوضع الداخلي لبلدان المغرب مع نهاية القرن الخامس عشر (الانقسامات

الداخلية):

شهد تاريخ الدولة الحفصية والزيانية والمرينية في مجمله، فترات من القوة¹ والضعف، تميزت من جهة بالانقسام الداخلي بين أفراد كل أسرة من أجل الفوز بالحكم، والسيطرة على مقاليدته، تجسد ذلك في أحداث عنيفة ودموية في بعض الأحيان، كانت تهز كيانهما، ومن جهة أخرى كانت العلاقات السياسية بين تلك الدول في أغلبها تمتاز بالتناحر والتنافس من أجل سيادة المنطقة، وباعتبار أن الدولة الزيانية احتلت موقع الوسط بين الدولتين، فقد تعرضت في العديد من المرات للتبعية الحفصية،

¹ - من بين أبرز السلاطين الأقوياء في هذه الدول، نجد: السلطان أبا يحيى أبا بكر الحفصي، والسلطان أبا العباس أحمد، وابنه أبا فارس عبد العزيز المدعو عزوز، في الدولة الحفصية؛ والسلطان يغمراسن بن زيان، وأبي حمو موسى الأول، وأبي حمو موسى الثاني، وابنه السلطان أبي تاشفين الثاني في الدولة الزيانية، والسلطان أبي يوسف يعقوب، وأبي يعقوب يوسف، والسلطان أبو الحسن المريني، وابنه أبو عنان في الدولة المرينية. انظر حول المرينين: محمد بن مرزوق الجد التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1402هـ / 1981م؛ أبو العباس أحمد بن حسين بن قنفذ القسنطيني، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م، ص ص 154، 177، 189؛ محمد بن عبد الله التنسي، **تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيّان**، تح محمود بوعيداد، د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1405هـ / 1985م، ص ص 115، 132، 157، 184؛ أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، **روضة النسر في دولة بني مرين**، د ط، المطبعة الملكية، الرباط، 1382هـ / 1962م، ص ص 17 - 27؛ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي، **تاريخ الدولتين الموحديّة والحفصيّة**، تحقيق محمد ماضور، دط، المكتبة العتيقة، تونس، د ت، ص ص 134، وما بعدها.

أو المرينية¹، وإذا أمعنا النظر من كلِّ النواحي ندرك حقيقة الأزمة الكبيرة التي آلت إليها بلدان المغرب؛ فالصراع الذي كان قائما بين الدولتين الحفصية والزيانية حوّل السلطة والنفوذ في المنطقة، أضعفهما وأهلك قواهما وأدى أخيرا إلى تجزئتهما وتفككهما وتقلص نفوذهما أكثر فأكثر، كذلك هو الحال بين الزيانيين والمرينيين، فنجم عن كل ذلك، تجزؤهم إلى عدة وحدات سياسية صغيرة متنافرة، لا يسود بينها الوئام، فيما تقلص نفوذ السلطة الفعلية لكل دولة في الحدود الضيقة لعاصمتها.

(أ) المغرب الأوسط:

في ظل الأوضاع المتردية التي عرفتھا الدولة الزيانية في آخريات عھدھا، وجراء الصراعات، والثورات التي شهدتها، انكمش حكم الدولة الفعلي على عاصمتھا مدينة تلمسان وضواحيھا، وكذلك الأمر بالنسبة للدولة الحفصية - باعتبار أنّ بعض مدن المغرب الأوسط كانت تابعة للدولة الحفصية كقسنطينة وبجاية- فكانت أغلب المدن الساحلية للمغرب الأوسط كوهرة و تنس وشرشال ومدينة الجزائر ودلس وبجاية وجيجل والقل وغيرھا، إما تحت حكم أمير زياني منشق عن الدولة الزيانية، كأبي يحيى بن محمد الزياني في تنس، أو عن الدولة الحفصية، كعبد الرحمن الحفصي في بجاية، أو تحت حكم حاكم مخير من طرف أهالي المدينة، كوهرة، أو شيخ قبيلة كسالم التومي بمدينة الجزائر². أما المناطق الجبلية؛ فقد أسست إمارات ذات طابع مرابطي، من أهمھا: إمارة بني عباس في جبال القبائل جنوب بجاية، وإمارة كوكو الواقعة إلى الغرب من الإمارة الأولى في الجبال نفسها. واستقلت المدن الداخلية بالجزائر كذلك عنھما تحت حكم بعض الأسر، كأسرة بني جلاب في

¹ - أهمھا الحصار المريني الطويل لمدينة تلمسان، من طرف السلطان أبي يعقوب يوسف الذي دام سبع سنين (698 هـ/ 1299م)، والحملة التي قادھا السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط والأدنى سنة، ثم حملة ابنه أبي عنان. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، د ط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، 1421هـ/ 2000م، ج7، صص 123-125.

² - عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/السادس عشر ميلادي، ج1، دار الامل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م، ص 16.

توقرت، وعلاهم في ورقلة، جنوبي الجزائر، وغيرها. وسادت القبائل على المناطق السهلية كبنى عامر في القطاع الوهراني، والدواودة في القطاع القسنطيني¹.

ب (المغرب الأدنى (تونس) :

كان من الصعب على الدولة الحفصية الاحتفاظ بممتلكاتها وفرض سلطتها المركزية؛ فمع وفاة السلطان أبي عمرو عثمان سنة 893هـ / 1487م، اضطربت الأوضاع السياسية جراء تنافس الأسرة على الحكم²، بالإضافة إلى كثرة تدخلات البدو في السلطة، وعدم تمكن أي سلطان من وضع حد لنفوذهم، إذ لم ينفع معهم استعمال القوة مثلما فعل السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد الخامس بن الحسن بن محمد المسعود (899-922هـ / 1494-1525م) الذي حاول أن يتخلص من وصاية البدو عن طريق ردعهم لكنه مُني بهزيمة كبيرة قرب القيروان، فكان من أثر هذه الهزيمة عدم اعتراف القبائل بخضوعهم للسلطة المركزية³. وأما السلطان أبو محمد الحسن بن محمد بن الحسن الحفصي (932-950 هـ / 1526-1544م)، فقد عرف عهده كثرت الاضطرابات والثورات ضده فخرجت مدينة سوسة عن طاعته، وتغلبت الأعراب على جل البلاد⁴، وبذلك انكمشت هذه الدولة بسرعة منذ أن فقدت القدرة على ردع القوى الانفصالية المتمثلة في قبائل المناطق الداخلية، وقامت بمدينة القيروان أقوى الثورات وأشهرها، الثورة التي قادها الشيخ المرابط عرفة بن نعمون الشابي -

¹ - بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص16؛ عبد القادر فكاير، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث العهد العثماني 1518-1830، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة- الجزائر 2018م، ص ص 14-25

² وقع الصراع بين حفيد أبي عمرو عثمان بن أبي زكرياء يحيى الثالث بن محمد المسعود، وأبناء أعمامه، الأمر الذي أدى إلى مقتله على يد ابن عمه عبد المؤمن بن إبراهيم، واستيلاءه على السلطة، ثم انتقام ابنه زكرياء بن يحيى الثالث، لأبيه واستعادته للسلطة، فتعاقب على الحكم ثلاث شخصيات في فترة قصيرة امتدت ما بين (893-899هـ / 1487-1493م) في هذه الفترة؛ فانفصلت كل من بجاية وقابس وقفصة عن السلطة المركزية. أنظر: محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، د ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1406هـ / 1986م، ص ص 641-648.

³ - المطوي، المرجع السابق، ص ص 641-648.

⁴ - أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيبي ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط3، دار المسيرة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، 1993م، ص 183.

صاحب الطريقة الصوفية المعروفة بالشايبية- حيث استطاع السيطرة على المدينة، ولم تتمكن السلطة الحفصية من استرجاعها، وقد كانت هذه الثورة إحدى الأسباب في التدخل العثماني في المنطقة¹.

(ج) طرابلس الغرب (ليبيا) : أما بخصوص طرابلس الغرب (ليبيا)، فلم تستطع الدولة الحفصية الحفاظ على نفوذها فيها؛ خصوصا لما ظهرت قوة منافسة لها تمثلت في المرابطين الذين بدؤوا في الاستقلال عن سلطتها وشكلوا حكما ذاتيا، ومن المناطق نذكر: قابس، والجريد، وتاجوراء، وكان يتأس كل منطقة شيخ من المرابطين، كما أدى الصراع القائم بين رجال الطرق الصوفية، ضد السلطة الحفصية الضعيفة، التي حاولت مرارا إعادة سيادتها على المناطق المنشقة إلى تأزم الوضع بشكل كبير؛ وتمكن أحد شيوخ الصوفية المعروف بالشيخ أبي بكر عبد الله من الاستقلال بحكم طرابلس في الأعوام الأخيرة قبل احتلالها من الإسبان سنة 1510م².

(د) المغرب الأقصى:

شهد المغرب الأقصى هو الآخر، تشققا وتفتتا من الناحية السياسية، بلغ هذا التفكك ذروته، وبسبب ازدياد الخطر الأجنبي على المغرب، وأمام عجز الحكام المرينيين ومن بعدهم حكام الفرع الوطاسي عن حماية البلاد وفرض سيطرتهم على كل أجزاء المغرب؛ انقسم المغرب الأقصى إلى إمارات، يحكم بعضها زعامات قبلية، وأخرى دينية (مرابطون) أو أشراف أو أمراء محليون متنافسون ومستقلون عن السلطة المركزية أو تابعون لها اسميا؛ ومن بين المدن التي ظهرت فيها هذه الزعامات: العرائش وبها

¹ - بعد استيلاء الشايبية على القيرون، تطلعوا إلى بسط نفوذهم على كامل مناطق الوسط، والمدن الساحلية، مما أدى بهم إلى الاشتباك مع أتباع الطريقة الغريانية التي كانت هي الأخرى تطمح للسيرة على القيرون، فبعد وفاة الشيخ عرفة الشايبى خلفه ابن أخيه، محمد بن أبي الطيب، المعروف بسوء السيرة، بالإضافة إلى تواطئ السلطان الحفصي مع الإسبان، فاستنجد الأهالي بحاكم طرابلس درغوث باشا، وهكذا انطفأت شجرة الشايبين التي دامت ما يقارب العشرين سنة. انظر: ابن أبي دينار، **المؤنس**، 183-184؛ المطوي، المرجع السابق، ص 683-684.

² - انشقت طرابلس عن السلطة المركزية للدولة الحفصية منذ القرن الرابع عشر ميلادي وحكمتها أسرة ابن ثابت البربرية مدة تزيد عن ثمانين عاما من 1324-1398م، بعدها استطاعت الدولة الحفصية استرجاع طرابلس حوالي سنة 1398م، وأخضعتها لحكمها إلى غاية عام 1498م. للمزيد انظر: إيتوري روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م**، ترجمة خليفة محمد التليسي، ط2، الدار العربية للكتاب، الاسكندرية- مصر، 1991م، ص 140-149.

أسرة آل عبد الحميد، والقصر الكبير التي تولت الحكم بها عائلة العروسي، وبتطوان ظهرت أسرة آل المنظري¹.

2- أوضاع بلدان المغرب في ظل حركة الاحتلال الاسباني- البرتغالي:

أمام تأزم أوضاع بلدان المغرب وتشتته وانقسامه داخليا، وتردّي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية به، ومع سقوط غرناطة وما أتبع ذلك من هجرات الأندلسيين الفارين من الاضطهاد المسيحي؛ فتحت شهية الأعداء في البلاد، فأصبحت سواحل المغرب عرضة للهجومات المسيحية الإيبيرية.

وقد تزعمت حركة الاستعمار في هذه الفترة الدولتان المسيحيتان الناشئتان في شبه جزيرة إيبيريا، وهما إسبانيا والبرتغال، وكانت كل وحدة منهما تسعى لكسب أكبر قدر ممكن من الممتلكات في بلاد المغرب، ولما اشتد هذا التنافس تدخلت البابوية لتهدأت هذا النزاع بعقد وتوقيع اتفاقية توردي سلاس (Tordesillas) عام 1494م وعُززت باتفاقية أخرى تعرف بمعاهدة سنتر (Sintra) سنة 1509م، التي جعلت من منطقة حجر بادس الحد الفاصل بين ممتلكات القوتين، شرقه للإسبان، وغربه للبرتغاليين، وبذلك مهدت السيطرة على سواحل بلاد المغرب وبموجبها بنى البرتغاليون قلعة على ساحل أغادير².

وبناء على الاتفاقيات السابقة؛ أقدمت إسبانيا على احتلال كل من مليلية سنة 1497، وحجر بادس 1508م من الساحل المتوسطي للمغرب الأقصى³. فيما كان نصيبها الأكبر في السواحل الجزائرية، فاحتلت المرسى الكبير عام 1505، ووهران 1509، بجاية سنة 1510 وأمام هذا التوسع المسيحي، أعلنت كل من دلس، ومستغانم ومدينة الجزائر تبعيتها للإسبان خوفا من أن ينالها ما نال المدن الأخرى، وتعهدت بدفع جزية سنوية؛ فتوجه وفد من مدينة الجزائر برئاسة سليم

¹ - عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية (دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، ط3، منشورات المؤرخين المغاربة، الرباط- المغرب الأقصى، 2006م، ص ص 16-17.

² - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 9-10؛ عبد القادر فكاير، الصراع الجزائري الاسباني، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع والطباعة، الجزائر، 2016م، ص 55.

³ - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 11، 12.

التومي، شيخ قبيلة الثعالبة، إلى الإسبان سنة 1511م واتفق الطرفان على أن يسلم الجزائريون أكبر جزرهم الصخرية للإسبان لكي يقيموا عليها قلعة تحرس سفنهم، والتي صارت تعرف منذ ذلك الوقت قلعة الجزائر (Penon d Alger)¹. فيما أقدمت البرتغال على احتلال السواحل الشرقية، وتعد مدينة سبتة أول مدينة تم احتلالها منذ وقت مبكر سنة 1415م وأصيلا سنة 1471م والعرائش 1489م وأغادير سنة 1505م، موكادور (الصويرة) 1508م واحتلال مدينة آسفي سنة 1508م، آزمور 1513م والمعمورة سنة 1515م².

أما طرابلس الغرب (ليبيا حاليا)، وفي إطار المشروع الاستعماري المسيحي؛ فقد حضّرت اسبانيا حملة ضخمة بقيادة الكونت بدرو دي نافارو (Pedro Navarro) في سنة 1510م، لاحتلال مدينة طرابلس فاستطاعت دخولها وإقامة حامية بها، واستمر حكمهم بها قرابة عشرين سنة، كما فرضوا ضرائب على المدن الواقعة بالساحل الغربي³. وفي سنة 1530م اضطر شارل الخامس إلى التنازل عنها لصالح فرسان القديس يوحنا، بسبب سوء الأوضاع الداخلية في إسبانيا، واشتغاله بالحرب مع فرنسا⁴.

ونستنتج مما سبق: أنّ الوضع السياسي في بلاد المغرب بشكل عام، تميز بالانقسام والضعف، مما جعل البلاد عرضة للتسلط الأجنبي الإيبيري، إذ تم احتلال العديد من المدن في السواحل المتوسطية والأطلسية، هنا ظهر مجموعة من البحارة، على رأسهم الأخوة بربروس، ومن جاء بعدهم، رفعوا راية تحرير المدن المحتلة، وتمكنوا في النهاية من ضم كل من الجزائر، طرابلس وتونس تحت راية الدولة العثمانية. وبالمقابل ظهرت الأسرة السعدية بالمغرب الأقصى التي استطاعت توحيد كلمة الجهاد.

¹ - عائشة غطاس وآخرون، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسستها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م، ص 17؛ فكايير، الصراع الجزائري الإسباني، ص 61-82.

² - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 6-12، بن خروف، المرجع السابق، ج 1، ص 47-48.

³ - أحمد بن الحسين النائب الأنصاري، نفحات النسرین والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني لنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، 1994م، ص 38-39؛ جان كلودزليتنز، طرابلس ملتقى أوروبا وبلدان وسط إفريقيا 1500-1795 إفرنجي، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، ط 1، دار الكتب الوطنية، بنغازي- ليبيا، 2001م، ص 28-32؛ مصطفى بازام، ليبيا في عشرين سنة من حكم الإسبان (1510-1530)، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1965م، ص 21.

⁴ - النائب الأنصاري، نفحات النسرین، ص 39-40؛ جان كلودزليتنز، المرجع السابق، ص 58-60.

المحور الثالث:
المد العثماني إلى الحوض الغربي
للمتوسط

تمهيد:

شكّلت منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط عبر تاريخها عامل جذب للقوى القريبة منها، لموقعها الاستراتيجي، ولغناها بالثروات المختلفة، فكانت تتعرض لهجمات أعدائها من رومان ووندال وبيزنطيين، إلى أن تمّ الفتح الإسلامي لها وأصبحت تابعة للدولة الإسلامية (الخلافة الراشدة، الدولة الأموية، الدولة العباسية). وعلى الرغم من قيام دويلات مستقلة بها؛ تابعة إسمياً للمشرق الذي كانت تمثله الخلافة العباسية. وكانت آخر الدول التي حكمتها قبل الفترة الحديثة، هي: الدولة الحفصية والزيرية والمرينية. وقد بقيت المنطقة تسيل لعاب أعدائها، خاصة مع ما عرفته الأندلس من صراع إسلامي - مسيحي، أدّى في النهاية إلى سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في يد الإسبان، ما جعل منطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط كلها (الأندلس وبلاد المغرب) مهدّدة بالسقوط في براثن الاحتلال الإسباني. هنا كان ولا بد من أن تتدخل دولة قوية تخلصها من الوضع الذي تعيشه، وباعتبار أنّ الدولة العثمانية هي الدولة الإسلامية الوحيدة القوية في تلك الفترة، فقد اتجهت أنظار الأندلسيين والمغاربة إليها لكسر شوكة الإيبيريين.

من هنا، يمكن طرح تساؤلات: ما هو موقف الدولة العثمانية مما وقع بمسلمي الأندلس من اضطهاد؟ وما هي البوادر الأولى للمدّ العثماني إلى الحوض الغربي للمتوسط؟

1- الملامح العامة لأوضاع الدولة العثمانية مع مطلع القرن 16م:

كانت الدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وبداية العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، تمثل أقوى دولة في العالم الإسلامي، وذلك لما امتلكته من قوة عسكرية، ولما حققته من توسعات، ولرفعها راية الجهاد في سبيل الله، خاصة بعد فتحها لعاصمة الإمبراطورية البيزنطية: القسطنطينية سنة 1453م، لذا فقد اتجهت إليها أنظار الأندلسيين لتخليصهم مما عانوه من قهر وطرّد ومحاربة الإيبيريين.

كان لفتح القسطنطينية صدى كبير في نفوس المسلمين عامة والأندلسيين خاصة، الذي استبشروا بظهور قوة إسلامية تخلصهم من محتهم، فتوجّحت أنظار أهل مدينة غرناطة إلى السلطان العثماني محمد الفاتح، وتوسّموا فيه أن يكون الشخص الذي ينقذ مدينتهم من السقوط في براثن

الاحتلال الإيبيري، فراسلوه في حدود منتصف سنة 1477م - أي قبل خمسة عشر سنة من وقوع الكارثة وسقوط غرناطة - يستنجدون به ويشتكون إليه عن الوضعية التي آلت إليها حالة المسلمين في الأندلس، ويطلبون منه التدخّل لردع الإيبيريين وردّ الاعتبار لهم، لكن انشغال السلطان بمواجهة التحالف الصليبي الذي كان يتربص بالدولة العثمانية، جعله غير قادر على مد يد العون لإخوانه في الأندلس¹.

وفي العهود التي تلت فترة السلطان الفاتح، وعلى الرغم من عدم تمكّن السلاطين العثمانيين من مدّ يد العون للأندلسيين والتّفرغ لمجابهة الخطر الإسباني المحدث بهم؛ إلا أنّ ذلك لم يمنعهم من لقيام ببعض المحاولات، فهذا السلطان بايزيد الثاني (1481-1512م)، شغله صراعه مع أخيه جم (1481-1495) الذي أعلن العصيان، وبحروبه مع المماليك في أدنة خلال الفترة (1485-1491م) وتحركاته وحروبه في أوروبا وآسيا الشرقية، بالإضافة إلى المعارك الخارجية التي عرفها عهده خاصة ضد ترانسلفانيا والمجر والبندقية، والتي كان منها هزيمته ضد التحالف الصليبي بقيادة البابا جيل الثاني في إطار محاربته للتحالف الصليبي كما أنه خسر أراضي من دولة العثمانية حين محاربته لتحالف الصليبي (جمهورية البندقية، المجر وفرنسا) بقيادة البابا جيل الثاني وما نتج عنه من خسارة بعض الأراضي التابعة للدولة العثمانية.

فمع كل هذه الظروف لم يرفض السلطان بايزيد الثاني إغاثة مسلمي الأندلس الذين أرسلوا إليه مكتوبا مع الشاعر أبي البقاء صالح بن شريف الرندي الذي ألقى بين يديه قصيدته التي رثى فيها الأندلس، وهي شهيرة، مطلعها:

لكل شيء إذا ماتم نقصان
فلا يغتر بطيب العيش إنسان²

¹ - كان هذا التحالف يضم كل من: البابا سكست الرابع (1471-1484)، وجنو ونابولي والمجر وترانسلفانيا وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس، وعددا من الزعماء الألبان الذين كانوا يضمرون عداء شديدا للدولة العثمانية. انظر: محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512-1543)، ط2، الأصاله للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص57

² - النسخة الخطية لهذه الرسالة موجودة في المكتبة الوطنية الجزائرية، برقم: 1620، وعنوانها: "رسالة أهل الجزيرة بعد استيلاء الكفرة على جميعها للسلطان بايزيد" وانظر أيضا: المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا، وآخرون،

فأرسل السلطان رسالة إلى البابا يهدّده فيها بسلامة وأمن المسيحيين في إستانبول وسائر مملكته، إذا استمرّ ملك قشتالة في محاصرة المسلمين في الأندلس والتضييق عليهم. كما أنه قام بإرسال أسطول إلى الشواطئ الإسبانية والإيطالية سنة 1486م بقيادة البحارة "كمال ريس" الذي نقل أول قوافل من الأندلسيين واليهود إلى تركيا، وكانت لهذا البحارة غارة أخرى على سواحل إسبانيا في 1510م رفقة زميله بيرى ريس إنطلاقاً من السواحل المغربية¹.

ومنذ ذلك الوقت اشتهرت عند أهل المغرب ومسلمي الأندلس طلائع البحارة العثمانيين الذين كانوا يجوبون البحر المتوسط بمبادرة فردية، يساندون إخوانهم الأندلسيين والمغاربة، إما عن طريق مدّهم بالأسلحة أو مدافعين بأنفسهم عن موانئ السواحل ضد خطر الغزاة الأوروبيين، وكانت القواعد الأساسية للنشاط الجهادي هؤلاء البحارة تمتد على طول الساحل الشمالي الإفريقي، منها: طرابلس، جربة، بجاية، جيجل، مدينة الجزائر، تنس وغيرها من القواعد².

ومع مطلع القرن السادس عشر ميلادي ورث السلطان سليم الأول -الذي كان يسمّى ياوز والتي تعني "الفصيح والقاسي"- عرش الدولة العثمانية³، كما أنه ورث مع هذا الصرح الكبير مشاكل داخلية وخارجية أيضاً، فكان من أول مهماته تأمين الوحدة الداخلية، فقام بتصفية أخوته وأبنائهم⁴ حتى يضمن الاستقرار لعرش الدولة¹، ثم أمّن حدود الدولة الشرقية، والجنوبية الشرقية، من

ج1، دط، المعهد الخلفي للأبحاث المغربية بين المغرب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، المغرب الأقصى، القاهرة- مصر، 1358هـ/ 1939م، ص ص 108-109 .

1 - محمد دراج، المرجع السابق، ص ص 181-182.

2 - نفسه، ص ص 182-184.

3 - نفسه، ص 11 .

4 - كان مبدأ تطبيق هذا الإجراء عقب الأحداث التي عرفتھا الدولة العثمانية بعد معركة أنقرة سنة 1402م وانحزام الجيش وأسر السلطان بايزيد الأول، ودخول أفراد الأسرة الحاكمة في حرب أهلية وقتال بين الأمراء حتّى سنة 1412م، ولم تنتهي تلك الأحداث إلا بظهور السلطان محمد الفاتح، الذي عمل على استتباب الأوضاع وعودة الوحدة وتماسك شتات الدولة، ولأته خشي من أن يحدث في المستقبل صراع بين الأمراء يؤدّي إلى تفكك الدولة من جديد، أمر مفتي الإسلام بإصدار فتوى تطبّق إذا تعارضت المصلحة العليا للإسلام مع التّضحية ببعض الرؤوس، ومن هنا جاءت الفتوى التي تبيح للسلطان قتل إخوته في حال رأى أنّهم يهددون أمن واستقرار الدولة، أو رميهم في مكان بعيد مع توفير كل وسائل الراحة لهم وملذات الحياة شريطة عدم الخروج من عزلتهم تلك، والتي كانت سبباً فيما بعد في ظهور سلاطين ضعفاء الشخصية تحوّلوا إلى أداة طيعة إمّا في أيدي النّساء أو الصّدور العظام، وكان هؤلاء السلاطين هم المعول الذي تسبب فيما بعد في إضعاف الدولة العثمانية، وبصدور هذه الفتوى يكون

الخطر الصفوي²، الذي لم يقتصر فقط على تهديد الجهة الشرقية للدولة العثمانية؛ بل امتد خطره إلى الأناضول، إذ بدأ الصفويون في عهد الشاه إسماعيل بتحريض شيوخ القبائل في الأناضول، وكان نتيجة ذلك ثورة سنة 1512م، فقاد السلطان حملة عسكرية تمكّن فيها من إخماد الثورة وقتل عدد كبير من الثوار، فاتجه إلى إيران (بلاد فارس) وفرض حصاراً شديداً، وأغلق الحدود معهم، وقام بقطع جميع العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولتين، وقد أدّى هذا الصراع إلى قيام عدّة معارك بين الطرفين، كان من أهمّها: معركة ميدان جالديران في أوت 1514م، حيث انكشفت المعركة عن انتصار العثمانيين وهزيمة الصفويين³، وتشتت فلول جيشهم، وفرار الشاه إسماعيل، ومن نتائج هذه المعركة إضعاف الدولة الصفوية ودخول العثمانيين لتبريز وأصفهان⁴، وضم كل من ديار بكر وبتليس

السلطان قد طبق نظرية السيف وسيلة من وسائل الإصلاح، لا تشتري العبد إلا والسيف معه. أنظر: خليل إينالجي، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد أرناؤوط، ط1، دار المدار الإسلامي، بنغازي ليبيا 2002م، ص 31 وما بعدها

¹ - دراج، المرجع السابق، ص 12.

² - كانت فتوحات الدولة العثمانية منذ ظهورها متجهة غرباً، باتجاه أرمينية وآسيا الصغرى، باعتبار أنّ غايتها كانت الجهاد ونشر راية الإسلام، أمّا الشعوب الشرقية فقد كانت مناطق تسكنها شعوب إسلامية، وكانت جبال طوروس هي الحد الفاصل بينها وبين الأراضي العربية، لكن مع بداية القرن السادس عشر ميلادي وظهور الدولة الصفوية في إيران (بلاد فارس) وتحديداً في مدينتي تبريز وأصفهان، هذه الدولة ذات المذهب الشيعي التي بدأت تفكر في التوسع خارج حدودها وتقيم علاقات مع البندقية وتسعى لوضع لمسات تحالف ضدّ الدولة العثمانية، ما جعل هذه الأخيرة تشعر ببداية اختلال موازين القوى من الناحية الشرقية، وتتوجه إلى ضرورة التدخل العسكري لإعادة الأمور إلى موازينها ومحاربة المدّ الشيعي خاصة أن الدولة العثمانية كانت على المذهب السني الذي وثته عن أسلافها السلاجقة الذين رفعوا راية الجهاد ونشر الإسلام ومحاربة المذهب الشيعي فيما مضى، فكانت هذه الأحداث الحافز الأساسي وراء تغيير ميدان المعارك العثمانية من الغرب إلى الشرق. أنظر: إينالجي، المرجع السابق، ص 48-57.

³ - نفسه، ص 54.

⁴ - ارتكب السلطان سليم الأول في هذه الموقعة خطأً استراتيجياً بعدم إطالة مكوثه في إيران، وعدم متابعته لفلول الصفويين، إذ كان بإمكانه ضمّ إيران والقضاء النهائي على الدولة الصفوية، وما جعله يغادرها في فترة وجيزة أنّ الجيش الذي كان معه من الانكشافية الذين جاءوا من أماكن مختلفة ذات مواصفات مناخية وجغرافية معتدلة ورطبة تختلف تماماً عنها في إيران التي تتميز بمناخ قاري صحراوي، فولّد المناخ تدمراً واستياءً لذا أفراد الجيش، ومنهم من لقوا حتفهم بسبب عدم القدرة على تحمّل المناخ، بالإضافة إلى الاختلاف المذهبي الذي جعل سليم الأول يخشى من فتح أبواب التواصل بين العثمانيين والإيرانيين. وبعد عودته إلى عاصمته ظهرت الدولة الصفوية من جديد، وشكّلت خطراً على الدولة العثمانية خاصة بعد احتلالها لبعض الأماكن في العراق، منها: النجف وكربلاء. أنظر: إينالجي، المرجع السابق، ص 54-57

وأروفة وماردين وما جاورها إلى ممتلكات الدولة العثمانية،. كما تمكن من بسط نفوذه إما عن طريق الإلحاق أو بعقد المعاهدات مع أمراء على أقصى الشرق وجنوب شرق الأناضول.

كان سليم الأول طموحا طامعا في سدة الزعامة السياسية والروحية للعالم الإسلامي وعليه كان يجب القضاء على سلطة المماليك، وقد جاءت له الفرصة السانحة لذلك عقب عودته من حربه مع الصفويين، إذ بلغه خبر تهديد السلطان المملوكي لمدينة حلب، فهبّ جيشا توجه به إلى الشام - وكانت هذه الأحداث بداية مرحلة انضمام المشرق الإسلامي وظهور الولايات العربية به التابعة للدولة العثمانية- وكانت المعركة بينه وبين الجيش المملوكي سنة 1516م في سهل مرج دابق شمال حلب، كان النصر فيها للعثمانيين وقُتل السلطان المملوكي قانصو الغوري، واستولى سليم الأول على مدينة حلب، وفتح كل من دمشق وحماه التي فتحت طواعية دون مقاومة من أهلها، وبالعكس فقد استقبلوا السلطان بحفاوة يفسّرها سوء أوضاع السكان الذين سئموا من السياسة الضرائبية التي فرضها عليهم المماليك، وأكمل الجيش العثماني سيره إلى لبنان، ثم فلسطين ودخل صحراء سيناء ومنها ولج إلى مصر. وقد كان من الأسباب التي جعلت سليم الأول يفكر في ضم الأراضي العربية إلى دولته، الهزيمة التي مُني بها الجيش المصري المملوكي أمام البرتغاليين في معركة ديو، والتي كادت أن تؤدّي إلى وقوع الحجاز تحت نير الاحتلال البرتغالي، وبالتالي تهديد الأماكن الدينية والمقدّسات الإسلامية، خاصة مكة والمدينة، وضمّ الحجاز إلى ممتلكات الدولة العثمانية يعطيها الشرعية الدينية لحكم العالم الإسلامي. وبدخوله إلى مصر والقضاء على سلطة المماليك ضم الولايات العربية: مصر واليمن والحجاز والحبشة وشرق السودان وأريتيا والصومال، وجميع السواحل المطلة على البحر الأحمر، وانفتح للدولة العثمانية لها الطريق إلى المحيط الهندي عن طريق البحر، كما سيطرت على أحد أهم مصادر الاقتصاد والتجارة، وهو الطريق التجاري المعروف بطريق الحرير (تبريز - حلب - بورصة)¹.

من هنا ندرك أنّ ما وقف عائقا أمام الدولة العثمانية في مساعدة المسلمين المضطهدين في الأندلس، وكذا ما كان يقع في بلاد المغرب من تعدي إيبيري على سواحل بحجة مطاردة الأندلسيين الفارين، هو أنّها كانت قد فتحت العديد من جبهات القتال والصراع، ولم تكتمل قوّتها وتوسّعها إلا في عهد السلطان سليم الأول الذي تمكن من إخضاع الشق الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وهذا ما

¹ - دراج ، المرجع السابق، ص 18 - 21؛ إنجليك، المرجع السابق ، ص 54-57.

يفسّر اقتصار مساعدة الأندلسيين على المبادرات الفردية لبعض البحارة، والتي نتج عنها فيما بعد الإلحاق الرسمي لكل من الجزائر، تونس، طرابلس لممتلكات الدولة العثمانية.

2- ظهور الإخوة بربروس في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط:

ظهرت مجموعة من البحارة العثمانيين - كما سبقت الإشارة - في البحر الأبيض المتوسط مع مطلع القرن السادس عشر، بهدف الجهاد وكان الإخوة بربروس من أشهر البحارة الذين جابو البحر المتوسط واشتهروا بلقب بربروس أي: ذو الحية الشقراء، أشهرهم عروج وخير الدين وهم أبناء رجل يسمى يعقوب آغا، كان إسحاق أكبرهم ثم عُروج وخير الدينوي (ويدعى خضر أيضا) وأخيرا إلياس، أمّا بالنسبة لِعُروج (oruç) فإنّ نطق الكلمة الصحيح هو بضم العين والراء معا، وليس بفتح العين وتشديد الراء - كما اشتهر على الألسن - لأنّ أصل التسمية نسبة إلى حادثة الإسرء والمعراج كما ذكر ذلك أحمد توفيق المدني¹.

يرجح أنه الإخوة بربروس، كانوا يجوبون البحر المتوسط في شقه الغربي منذ سنة 1504م وكانوا على صلة بأهالي المغرب ولهم معرفة بالسواحل المغربية. ولكن تواجدهم بشكل فعلي الذي كانت له معطيات خاصة، بدأ بتوجّه عروج إلى السلطان المملوكي بمصر وطلب السماح له باستخدام ميناء الإسكندرية كقاعدة لانطلاق نشاطه البحري ومستودعا لغنائمه، وبعدها قرر عروج تغيير قاعدته والتوجه إلى جربة بتونس سنة 1512م².

وفي هذه الأثناء أصدر السلطان سليم الأول قرارا يمنع فيه الإبحار في سواحل الأناضول، مما اضطر خير الدين إلى مغادرة ميدللي، واللّحاق بأخيه في نفس السنة، وتقدّم الإخوة بربروس إلى السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد (1494-1526م) وطلب منه منحهم جربة وميناء مقابل خُمس الأرباح، ففوافق هذا الأخير ومنحهم جربة وميناء حلق الوادي، وفي ذلك الوقت كان أسطول

¹ - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492-1792)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطابع دار البعث، قسنطينة، الجزائر، دت، ص، ص 159-161.

² - مجهول، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، ط2، دار طليطلة، الجزائر، 2015م، ص ص 29-31.

الإخوة بربروس يتشكل من سفينتين، وتطور بفعل الجهاد البحري إلى أربعة عشرة سفينة¹ يجوبون بها الحوض الغربي، فحققوا مكاسب كثيرة واشتهر أمرهم.

كان الأخوان عروج وخير الدين مهتمين جدا بتحرير بجاية في خِصَم صراعهما مع الإسبان، لما تملكه من موقع استراتيجي فبتحريرها يتم تأمين السواحل التونسية والسواحل الشرقية الجزائرية من الغارات الإسبانية، كما يقطع طرق المواصلات الإسبانية بين طرفيها الشرقي الذي يتخذ من إيطاليا قاعدة له، والغربي الذي يتركز في إسبانيا، كما تذكر المصادر أن كلا من أمير بجاية عبد الرحمن الحفصي، وأشراف بجاية راسلوا الإخوة وطلبوا المساعدة منهم لتخليصهم من الإسبان، فلبى عروج وخير الدين النداء وأقدم الإخوة على محاولة تحرير بجاية سنة 1512م، فقاموا بمحاصرتها من جهة البحر، فيما حاصر أهلها من جهة البر، لكن محاولة تحريرها باءت بالفشل وأصيب عروج بضربة قطعت على إثرها يده، فاضطر إلى رفع الحصار².

وعند فشل الإخوة بربروس في طرد الإسبان من بجاية، تيقنوا أنّ تحريرها لا يتأتّى إلا بإيجاد قاعدة قريبة لتزويد السفن بالمؤونة بدلا من الرجوع إلى جربة، فوقع اختيارهم على مدينة جيجل التي كانت محتلة من طرف الجنويين منذ سنة 1260م، فحرروها بطلب من الأهالي سنة 1514م، واتخذوها قاعدة لهم³. منها انطلقت السفن البرباروسية في المحاولة الثانية لتحرير بجاية في نفس السنة، لكنهم فشلوا مرة أخرى وكان السبب خذلان الملك الحفصي لهم وعدم تزويدهم بالبرود مما اضطرهم إلى الانسحاب والعودة لجيجل قاعدتهم.

شاعت أخبار الأخوة برباروس في كل أرجاء البحر المتوسط وكانت انتصاراتهم ترعب الأسبان وتزرع أملا بالخلاص من العدو الإيبيري لدى المغاربة والأندلسيين، مما دفع المدن المحتلة إلى طلب العون لتحريرهم من قبضة الإسبان المسيحية، كما أن انتصاراتهم وصلت إلى الباب العالي الذي استقبل هذه الأخبار بفخر، فقد كان جهاد البحارة برباروس ومن معهم من البحارة العثمانيين يمثلون العالم الإسلامي ضد العالم المسيحي المتمثل في الإسبان، ومن ثمّ كان الإخوة برباروس يمهّدون الطريق

¹ - محمد دراج، الدخول العثماني، ص ص 188-190؛ مجهول، مذكرات خير الدين، ص 60.

² - مجهول، مذكرات، ص ص 60-63؛ محمد دراج، دخول العثماني، ص ص 196-197.

³ - دراج، دخول العثماني، ص ص 196-197؛ فكاير، الصراع الجزائري الاسباني، ص ص 107-108.

للدولة العثمانية في مجابهة العالم المسيحي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، لإن البحارة وإن استطاعوا نقل مسلمي الأندلس وبث الرعب في الشواطئ الإسبانية بغاراتهم الخاطفة، فإن تحرير سواحل المغرب كان يتطلب قوة دولة وامدادات عسكرية كبيرة.

استطاع الإخوة برباروس زرع الرعب والخوف في نفوس الإسبان وكانت انتصاراتهم دافعا للأهالي لطلب العون منهم، فقد انتهز أعيان وأشراف مدينة الجزائر فرصة موت الملك الإسباني فرديناند سنة 1516م لنقض معاهدة التبعية لهم، فأرسلوا وفدا يطلبون فيه المساعدة من عروج لطرده الإسبان من مدينتهم. فوافق عروج واتجه برا وأرسل قوات أخرى بحرا، وعندما وصوله إلى المدينة استقبل بحفاوة، وتمكن من دخولها ومنها أصبحت القاعدة الثانية للعثمانيين في الجزائر¹.

وبهذا النجاح العثماني؛ زادت سمعة عروج وخير الدين، فأرسل سكان تلمسان إليهما سنة 1517م، لإنقاذهم من سلطانهم الزياني أبي حمو موسى الثالث الموالي للإسبان، فتوجه عروج غربا نحو تنس، ثم واصل المسير إلى تلمسان، وعند وصوله إليها هزم سلطانها، الذي هرب إلى الإسبان ودخل عروج المدينة؛ إلا أنّ الحملة العسكرية التي شنّها أبو حمو الثالث بمساعدة الإسبان على تلمسان في السنة الموالية، أي 1518م؛ جعلت عروج ينسحب منها وينهزم وانتهى الأمر باستشهاده في ماي عام 1518².

¹ - دراج، دخول العثماني، ص ص 210-214.

² - نفسه ص ص 232-127؛ فكاير، الصراع الجزائري الإسباني، ص ص 126-128؛ المدني، المرجع السابق، ص ص 190

المحور الرابع:
ظروف إلحاق الدول المغربية
(الجزائر، طرابلس، تونس) بالدولة
العثمانية

تمهيد:

عرف المغاربة الدولة العثمانية عن طريق البحارة الذين جابوا البحر الأبيض المتوسط بغرض الجهاد ونصرة الأندلسيين المضطهدين من قبل الإسبان، وكان تدخّل البحارة المعروفين بالإخوة برباروس لتحرير المدن المحتلة في بلاد المغرب، الخطوة الأولى التي جعلت الجزائر تلتحق بالدولة العثمانية وتصبح أول إيالة تابعة لها في الحوض الغربي للمتوسط، ليتم فيما بعد إلحاق كل من تونس وطرابلس. فما هي ظروف إلحاق كل من الجزائر، تونس وطرابلس للدولة العثمانية؟

1- ظروف إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

ارتبط إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية بتدخّل الإخوة برباروس في البحر الأبيض المتوسط، والدور الذي قام به عروج في محاولة تحرير المدن، إلى غاية استشهادهم في تلمسان، فلما بلغ خبر استشهادهم مسامع أخيه خير الدين الذي كان بمدينة الجزائر، وحزن حزنا شديدا واستأذن أهل مدينة الجزائر في العودة إلى بلاده وقال لهم: «... أنا بقيت في بلادكم منفردا غريبا لا ناصر لي ولا معين، وقد رأيتم ما وقع من سلطان تلمسان وما أجلب به علينا من النصارى...»¹. وقد أدرك خير الدين أنّ تحرير المدن المغاربية المحتلة أو مساعدة الأندلسيين لا يتأتّى إلا عن طريق قوّة كبيرة تستند إلى دولة مثل الدولة العثمانية.

وفي هذا الوضع المتأزم قرر أهالي مدينة الجزائر إرسال وفد للسلطان العثماني سليم الأول يطلبون فيه المساعدة وإعلان التبعية له في رسالة واضحة، ويرجح أن خير الدين هو من عرض على أهل مدينة الجزائر لما اصبروا على بقاءه خوفا من الإسبان، الالتحاق بالباب العالي لكونه لا يملك وسائل الدفاع عنهم، وفي تلك الظروف وفي غياب قوة مركزية وظهور الدولة العثمانية كقوة إسلامية، خصوصا بعد توليها مفاتيح مكة وضم البلاد العربية إليها وحمايتها، فاستقبل سلطان الدولة العثمانية سليم الأول الوفد الجزائري بحفاوة، وقبّل بإلحاق الجزائر بالباب العالي، ونصّب خير الدين بايلربايا

¹ - عائشة غطاس وآخرون، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2007، ص 24.

بفرمان تولية، فكان الانضمام الرسمي بتاريخ 1519م¹، وهذا استنادا لرسالة الوفد الجزائري التي كانت في أوائل ذي القعدة 925هـ/ 26 أكتوبر - 3 نوفمبر 1519م²، يتبين من مجريات الأحداث والرسالة الموثقة أن إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية كان طواعيا.

وبانضمام الجزائر للبواب العالي وقع تغيير لموازين القوى في غرب البحر المتوسط، فكانت أول إيالة تابعة للدولة العثمانية في بلاد المغرب، ونقطة انطلاق لتحرير باقي السواحل المتوسطية من الاحتلال الإسباني، وكذا انضمام كل من تونس وطرابلس.

(2) طرابلس الغرب:

فيما يخص تداعيات ضم طرابلس الغرب للدولة العثمانية، فقد كانت ضمن سياستها في البحر المتوسط في شقه الغربي، وإدراكها للأهمية الاستراتيجية لمدينة طرابلس التي تعتبر نقطة الربط بين شقي البحر المتوسط، فبعد احتلال مدينة طرابلس من الإسبان سنة 1510م، اضطر عدد كبير من سكانها الهجرة إلى المناطق المجاورة وبشكل خاص الغريان وتاجوراء³، ومن مدينة تاجوراء كانت المحاولات لاسترجاع المدينة المغتصبة؛ وبما أنّ القوة العثمانية في هذه الفترة فرضت وجودها في المنطقة؛ فقد كانت بالنسبة لأهل طرابلس العنصر الوحيد الذي يستطيع تخليصها من قبضة الاحتلال، فتذكر المصادر أن الاستنجد بالقوة العثمانية كان منذ أن انضمت الجزائر إلى الدولة العثمانية وذاع صيت خير الدين في البحر، فقام وفد من تاجوراء بالتوجه إلى القسطنطينية وطلب المساعدة من السلطان العثماني سليمان القانوني، كما أنهم اتصلو بخير الدين بربروس⁴. فأرسل مراد آغا الذي اتخذ هذه

¹ - مجهول، مذكرات خير الدين، ص 107؛ فكاير، الصراع الجزائري الإسباني، ص ص 146-148؛ غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص ص 24-25.

² - عبد الجليل التميمي، «أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر للسلطان سليم الأول 1519»، المجلة التاريخية المغربية، مؤسسة التميمي زغوان ع 6، 1976م، ص ص 116-120. أنظر: ملحق رقم 1

³ - عمر علي بن اسماعيل، انهيار حكم الأسرة القرمانلية، ص 17؛ نجم الدين غالب، مدينة طرابلس عبر التاريخ، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978م، ص 91.

⁴ - النائب الأنصاري، أحمد بك بن الحسين، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، د ط، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب- ليبيا، د ت. ص 188؛ الكيب، نجم الدين غالب، مدينة طرابلس عبر التاريخ، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978م، ص 91؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص 196.

المدينة قاعدته العسكرية لشن غارات متتالية ضد فرسان مالطة، لكنه لم يستطع تحرير مدينة طرابلس لشدة تحصين القلعة¹.

وأمام هذا الوضع المتأزم في المنطقة الغربية للبحر المتوسط، وعدم قدرة مراد آغا على اقتحام طرابلس، صدر قرار إرسال الأسطول العثماني لتحريرها عام 1551م، بقيادة سنان باشا ومساعدة درغوث ريس، وبالاتفاق مع مراد آغا؛ وضعت الخطط اللازمة للهجوم على المدينة، فاتفقوا على محاصرتها، ثم مهاجمتها برا وبحرا، فتمكنوا من اقتحام القلعة ودخول المدينة في 16 أوت 1551م، وقد أقام العثمانيون احتفالا كبيرا بانتصارهم العظيم في الخندق المقابل لخرائب القلعة².

(3) ظروف إلحاق تونس بالدولة العثمانية:

فيما يتعلق بحيثيات انضمام تونس للحاضرة العثمانية؛ فقد دخلت ضمن الصراع الثلاثي: الحفصي، الإسباني، العثماني، فكانت المحاولة الأولى لضمها على يد خير الدين سنة 1534م، وذلك لما أتيت له فرصة استنجد السلطان المخلوع رشيد الأكبر بن أبي عبد الله، بالسلطان العثماني لاسترجاع حقه الشرعي من أخيه الحسن، واستطاع خير الدين الدخول إلى تونس، لكنه لم يكتف فيها كثيرا حيث تعرض لهجوم إسباني شرس، جاء عقب استنجد الأمير الحفصي الحسن بشارلكان، فمُنِيَ العثمانيون بالهزيمة، واستعاد الأمير الحفصي تونس مقابل إعلان التبعية للإسبان بموجب معاهدة أبرمها السلطان الحفصي مع الإسبان في أوت 1535م، والتي حولت تونس إلى شبه مستعمرة إسبانية حيث سلمت حلق الوادي للإسبان وأعطيت امتيازات تجارية للمسيحيين³.

ورث السلطان الجديد أحمد بن الحسن أوضاعا مزرية لم تمكنه من تقليص تدخل البدو في الحكم، هنالم يبق العثمانيون مكتوفي الأيدي، خصوصا وأن الجزائر وطرابلس أصبحتا تابعتين رسميا

¹ - النائب الأنصاري، *نفحات النسرین*، ص ص 40-42؛ إيتوري روسي، المرجع السابق، ص ص 196-206.

² - النائب الأنصاري، *نفحات النسرین*، ص ص 42-43؛ إيتوري روسي، مرجع السابق، ص ص 206-211.

³ - دلندة الأرقش، وآخرون، *المغرب العربي الحديث من خلال مصادره*، مركز النشر الجامعي، ميدياكم، 2003م، ص ص 53-54.

لهم، فبدأوا سلسلة من الحملات البحرية، أولاها على جربة سنة 1560م¹، وفي عهد البيلرباي العلي علي شن حملة على تونس في منطقة سهل باجة، وكانت هذه المعركة مع الجيش الحفصي الذي انهزم، وفر السلطان أبو العباس أحمد إلى الحامية الإسبانية، وتمكنت القوات العثمانية من دخول تونس في 1569م، وأوكل العلي علي ولايتها لقبطان رمضان².

في هذه الأثناء أقنع أبو الحسن الحفصي الملك فليب الثاني بمساعدته لاسترجاع عرشه، فقرر الملك شن حملة سنة 1573م منتهزا فرصة هزيمة العثمانيين في معركة ليبونتي سنة 1571م، فجهز أسطولا ضخما محاولا إعادة احتلال تونس، وتمكن من دخولها في خريف سنة 1573م، وما إن وصل إلى حلق الوادي؛ حتى بدء بقراءة شروط إسبانيا المجحفة، المتمثلة في إقامة الحماية على تونس، واقتسام المملكة، ودفع ضريبة، مما أثار غضب السلطان أبي العباس ودفعه إلى إعلان رفضه، لكن الإسبان لم يعبثوا به، ونصبوا أخاه محمد سلطانا مقابل الرضوخ لشروطهم. وقد أقام الإسبان قلعة عظيمة خارج سور المدينة، وانسحبت الحامية العثمانية إلى القيروان، ولما وصل الخبر إلى الباب العالي، اتخذت الأستانة قرار تجهيز حملة لتحرير تونس، وتم جمع الجيوش من الجزائر وطرابلس والمشرق، فانطلق أسطول كبير بقيادة علي مع سنان باشا متوجها نحوها سنة 1574م، فحقق انتصارا عظيما وتم القضاء على السلطة الحفصية نهائيا، ومنذ هذا التاريخ انضمت تونس للامبراطورية العثمانية، وانتهى نجم الدولة الحفصية التي بقيت تنفض انفاسها مع الربع الأول من القرن السادس عشر³.

¹ - Giles Veintin, Aperçus sur l'entrée de l'île de Djerba dans l'orbite ottomane in RH, M n°31-32, Tunis 1983, PP395-410

² - عبد الجليل التميمي، دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن السادس عشر، ط1، منشورات مؤسسة التميمي البحث العلمي والمعلومات، تونس، 2009م، ص ص 51-55.

³ - المرجع نفسه، ص ص 57-61.

المحور الخامس:
تطور نظام الحكم في الجزائر خلال
الفترة العثمانية

تمهيد:

اختلف النظام السياسي للحكم العثماني في الجزائر عن الأنظمة السابقة التي حكمتها، وذلك لأنها كانت عبارة عن إيالة تابعة للإمبراطورية العثمانية في القسطنطينية، التي امتدّ سلطانها في أنحاء عديدة مشرقا ومغربا، من أرمينية وآسيا الصغرى إلى بلاد المشرق وبلاد المغرب، وعلى الرغم من أنّها كانت تشترك معها في السياسة العامة، إلا أنّها كان لها ما انفردت به، باعتبار اختلاف البيئة والمجتمع والظروف التاريخية التي مرّت بها طوال التواجد العثماني بها، وقد مر الحكم العثماني في الجزائر بأربعة مراحل اتسمت بالتثبيت، التوحيد، والتصدي والتحرير والتوسيع والتنظيم والتحديث.

1- مرحلة البايكبايات (1519-1587م):

تطلبت هذه المرحلة جهودا في تثبيت الحكم، فعمل خير الدين أول بيلرباي وخلفاؤه على توحيد الإمارات والمدن التي كانت تنتهز الفرص للتمرد، لكن شيئا فشيئا استطاعوا تثبيت الحكم، تارة بالحرب، وتارة بالسلم. ولا يمكن أن يكون التثبيت دون المرور على التوحيد والتحرير، وقد حققوا في ذلك باعا طويلا، فتم تحرير عدة مدن منها بجاية سنة 1555م، والقضاء على الدولة الزيانية نهائيا سنة 1554م¹.

وفيما يخص التنظيم الإداري فقد تم تنظيم الإيالة إداريا، فقسمت إلى أربعة أقسام²: دار السلطان - سميت دار السلطان لأنها تدار من طرف كبار مساعدي الحاكم - وبايلك التيطري وبايلك الشرق وبايلك الغرب، وكل بايلك كان يحكمه باي، والبايلك منقسم هو الآخر إلى أوطان، وعلى رأس كل وطن قائد، والعشائر الموجودة في كل وطن على رأس كل قبيلة شيخ، والأوطان عددها في كل بايلك مختلف حسب الكبر. وبعد وفاة العليج علي سنة 1587م آخر بيلرباي الجزائر؛ قررت الدولة العثمانية تحديد مدة بقاء حاكم الإيالة، وكان الهدف من ذلك ضمان تبعيّة حكام الجزائر، وعدم منحهم فرصة الاستقلال عنها.

¹ - غطاس، وآخرون، الدولة الجزائرية الحديثة، ص 44-48؛ بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص ص 25-36.

² - غطاس، وآخرون، الدولة الجزائرية الحديثة، ص ص 139-220.

2-مرحلة الباشوات (1587-1659م)¹:

تميزت هذه المرحلة بتحديد مدّة حكم الباشا بثلاث سنوات، وكان الباشا بمجرد قدومه إلى الجزائر يجد نفسه في مواجهة قوّتين، هما: الجيش الإنكشاري، وطائفة الرّياس، ومع مرور الزّمن فقدت الباشويّة صلاحيّاتها وتنازلوا عنها للجيش الإنكشاري، ورغم الظروف التي مرت بها هذه المرحلة المتمثلة في الفوضى وعدم الاستقرار نتيجة تدخّل كلّ من الأوجاق والرّياس في شؤون الحكم؛ إلا أن البحرية الجزائيّة، واصلت نشاطها وجهادها، وتصدّت للحملات المسيحيّة. ونتيجة للفوضى العارمة التي عرفتھا الإيالة أواخر هذه المرحلة؛ فقد استفرد الجند بالسلطة وأصبح الحكم في يد الآغاوات.

3-مرحلة الآغاوات (1659-1671م):

مع العلم أن الباب العالي استمر في ارسال الباشوات ممثليهم كرمز من رموز التبعية؛ إلا أن الحكم الفعلي في الإيالة كان بيد الآغاوات في هذه المرحلة، وقد دامت فترة الآغاوات اثني عشرة سنة، وتميّزت بالدموية وعدم الاستقرار ومن مظاهرها اغتيال كلّ من تعاقب على الحكم. وبعد اغتيال الحاج علي آغا سنة 1671م؛ أصبح منصب الآغويّة شاغرا بسبب إعراض الآغاوات عن الترشح للمنصب خوفا من القتل، وهو ما جعل الرّياس يستأثرون بالحكم، وبذلك دخلت الجزائر في آخر مرحلة من مراحل حكمها وهي فترة الدّايات².

4 - مرحلة الدايات (1671-1830م):

بدأت فترة الدّايات باستئثار طائفة الرّياس بالحكم، حيث تولّى السّلطة القبطان الحاج محمّد التريكي، الذي كان يحضى بالاحترام الكبير لدى الجميع، ولكن لتقدمه في السن قام بتعيين صهره بابا حسن شاوش لتسيير الأمور، ودامت فترة حكمه إحدى عشرة سنة (1671-1682م)، وهي دلالة على الاستقرار الذي ميّز بداية عهد الدّايات. وبصفة عامة، تعتبر مرحلة الدايات أطول وأزهى العهود، إذ تم خلالها تحرير مدينة وهران سنة 1206هـ / 1792م نهائيا على يد الباي محمد بن

¹ - غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص ص 48-52.

² - المرجع نفسه، ص ص 52-54؛ وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبادية، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م، ص ص 73-74.

عثمان الكبير¹، وعرفت البحرية أوج ازدهارها خلال القرن السابع عشر، وعمل الدايات على تأسيس حكم محلي، حيث تم القضاء على ازدواجية السلطة سنة 1711م، وحصل وقتها الداوي علي شاوش على فرمان التولية من الباب العالي، وبهذا أصبحت الجزائر شبه مستقلة بقراراتها واتفاقاتها مع الدول².

ومع نهاية القرن الثامن عشر، شهدت الجزائر مرحلة من الضعف، إذ أن تراجع غنائم البحر أدى إلى كثرة وازدياد الضرائب المفروضة على الأهالي؛ فنتج عنه حدوث انتفاضات، وفي الوقت ذاته ازدادت الأطماع الأوربية خاصة الفرنسية والإنجليزية على الجزائر، وانتهى الأمر بالاحتلال الفرنسي عام 1830م³.

¹ - محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ط1، دار الوعي للنشر والتوزيع، روية- الجزائر، 1439هـ / 2018م، ص ص 221-233؛ محمد بن يوسف الزباني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، اعتناء عبد الرحمن دويب، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، المحمدية- الجزائر، 2013م، ص ص 260-270.

² - غطاس، وآخرون، الدولة الجزيرية الحديثة، ص 57؛ إتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، 1989م، ص 463.

³ - للمزيد حول هذه المرحلة. انظر: غطاس، وآخرون، المرجع السابق، ص ص 54-60.

المحور السادس:

تطور نظام الحكم في المغرب الأقصى
في فترة السعديين والعلويين

تمهيد:

عرف تاريخ المغرب الأقصى خلال الفترة الحديثة تطورات عديدة في نظامه السياسي، فنتيجة الأوضاع التي كانت تسوده مع نهاية القرن الخامس عشر ميلادي من ضعف الدولة الوطاسية التي تعدّ فرعاً عن الدولة المرينية، وانقسمه إلى وحدات صغيرة حيث كثرت الزعامات القبلية المستقلة عن الوطاسيين فظهرت إمارات منها: بني راشد في شفشاون وآل المنظري في تطوان وابن حدو في الجبل الأخضر، آل فرحون في آسفي، آل شنتوف في مراكش، ونفود المرباط ابن المبارك في آفة وغيرهم¹، ما جعله لقمة سائغة للإسبان والبرتغاليين الذين احتلوا عدداً من المدن الساحلية، وأمام هذا الوضع كان لزاماً أن يظهر على مسرح الأحداث من يعيد الأمور إلى نصابها ويرفع راية الجهاد في سبيل الله، ويلمّ الشتات الذي أصابه، فكانت الدولة السعدية ومن بعدها الدولة العلوية هما الدولتان اللتان استطاعتا إعادة الوحدة والحفاظ عليها. فكيف كان قيامهما وما هي أبرز ملامح حكمهما.

1- الدولة السعدية:

أ- قيامها:

في خضم الأوضاع المتردية التي كان يعيشها المغرب الأقصى، خاصة جراء الاحتلال الإسباني كان سكان الساحل الجنوبي الغربي الأطلسي، أكثر عرضة للاضطهاد من قبل الإسبان والبرتغال؛ مما دفعهم للبحث عن زعيم يجمع ما تشتت ويوحد القبائل تحت راية الجهاد في سبيل الله².

وكان في إقليم سوس بلدة اسمها أفا، وهي مقرّ زاوية الطريقة الجزولية، بها الشيخ الإمام عبد الله بن محمد المبارك، الذي يحترمه كل الأهالي؛ فالتجّهت الأنظار إلى هذا الإمام، وقامت القبائل السوسية بإرسال وفد إلى أفا، فاستقبلهم الإمام، واستمع لمطلبهم المتمثل في توحيد الصفوف، وإعلان الجهاد وتنظيم البلاد وتعيين قائدا عليهم، لكنه اعتذر لكبر سنه، واقترح عليهم رجلاً يسمى محمد الشريف الذي لقب بالقائم بأمر الله وكان من أشرف تآكمدارات من بلاد درعة، واجتمعت كل القبائل بوسط إقليم سوس وتمت مبايعته سنة 1510م، لكنه تنازل هو الآخر عن الأمر لابنه

¹ - بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص46.

² - محمد الصغير بن عبد الله الأفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي، تصحيح هوداس، مطبعة ليرو، باريس - فرنسا، 1888م، ص 10-11؛ بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 50.

الأكبر أحمد الأعرج، كما منح قيادة الجيش لابنه محمد الأصغر، وهكذا تأسست الاسرة السعدية، وجعلت من ترودانت نقطة انطلاق الجهاد السعدي¹.

ب- الصراع السعدي- الوطاسي:

بدأ السعديون بالجهاد لتحرير المواقع من البرتغاليين، وكسر شوكة القبائل الموالية والمتحالفة معهم في المناطق الجنوبية. فكانت تافيلالت أول مدينة يتم تحريرها سنة 1510م، ثم تلتها انتصارات أخرى جعلتهم يحصلون على تأييد قبائل عدة²، ليتمكنوا في النهاية من حصار مراكش ثم دخولها سنة 1525م، وبهذا أصبح جنوب المغرب الأقصى تحت سيطرتهم، فتفطن الوطاسيون إلى خطورة السعديين، وأنّ حركتهم ليست من أجل تحرير المواقع المحتلة فقط؛ وإنما القضاء عليهم والاستيلاء على السلطة، فوجه السلطان الوطاسي أبو حسّون حملة عسكرية إلى مراكش، وحاصرها حصارا شديدا. وفي هذه الأثناء استغل ابن عمه غيايه عن فاس، فتمردّ وأعلن نفسه حاكما وطّاسيا، فاضطر أبو حسون إلى فكّ الحصار والعودة إلى عاصمته والقضاء على التمرد. هنا استغل أحمد الأعرج بمراكش الفرصة لكسب أحلاف جدد من أعداء الوطاسيين في الشمال³.

وبعد قضاء أبي حسون على المآمرة وجه سنة 1528م حملة أخرى إلى مراكش، حيث دارت بين الطرفين معركة في آثمائي، كانت الغلبة فيها للسعديين؛ فاضطر أبو حسون إلى توقيع اتفاق وهدنة معهم في نفس السنة، والاعتراف بدولتهم. بقي كل من السعديين والوطاسيين يستغل فرصة الهدنة لإعداد العدة، ثم أقدم أبو حسون على خرق الهدنة سنة 1536م، ف وقعت معركة بينهما تسمى بمعركة بوعرقبة على وادي عبيدي، وكان الانتصار لحليف السعديين، وكاد أبو حسون أن يقع في قبضتهم، هنا تدخلت بعض القبائل والأعيان لإصلاح ذات البين ووقف الحرب بينهما، فعقدت اتفاقية صلح في نفس السنة، تم بموجبها تقسيم المغرب إلى سلطتين، مما يعني اعتراف الوطاسيين

¹ - الأفراني، نزهة الحادي، ص ص 10-11؛ بن خروف، المرجع السابق، ج 1، ص 50.

² - بن خروف، المرجع السابق، ص 52.

³ - عبد الكريم كرم، المرجع السابق، ص ص 45، إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ عرض لأحداث المغرب وتطوراتها في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الإسلام إلى العصر الحاضر (ق 14هـ و 20م)، 3 أجزاء، ج 2، من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين، دط، دار الرّشاد الحديثة، الدار البيضاء- المملكة المغربية، 1420هـ/ 2000م، ص ص 173.

الرسمي بدولة السعديين. وقد استغل أبو حسون فرصة الهدنة وطلب المساعدة من الإسبان، الأمر الذي أفقد الدولة الوطاسية سمعتها وشعبيتها¹.

دخل الطرفان الوطاسي والسعدي في صراعات، دامت سنوات عديدة، أهم ما ميزها هو ازدياد شعبية السعديين في ظل ما حققوه من انتصارات على البرتغاليين وتحريرهم للمدن، فيما فقد الوطاسيون سمعتهم جراء طلب السلطان الوطاسي أبي حسون المساعدة من الإسبان، خاصة مع بروز شخصية سعدية جديدة كان لها تأثير كبير على مسرح الأحداث، وهي شخصية محمد الشيخ²، الذي واصل الجهاد والتقى مع أبي حسون في عدة معارك فكان دخوله الأول لمدينة فاس سنة 1549م، إذ فر السلطان الوطاسي أبو حسون إلى الجزائر، وطلب العون لاستعادة عرشه من البايبراي صالح راييس؛ الذي جهز حملة عسكرية اتجهت إلى فاس سنة 1554م، فانسحب منها السعديون، وقام صالح راييس بإقامة إدارة عثمانية موالية لإيالة الجزائر، وعين عليها أبا حسون حاكما بفاس، وبعد أن ضمن ولائه عاد صالح راييس إلى مدينة الجزائر، فاستغل محمد الشيخ الفرصة وتمكن من دخول فاس للمرة الثانية؛ وبذلك تم القضاء على الدولة الوطاسية تماما عام 1554م، وأصبح حكم المغرب تحت سلطة السعديين³.

ج- المغرب تحت حكم السعديين:

توحد المغرب تحت ظل الأسرة السعدية بعد القضاء على الدولة الوطاسية، وبعد مقتل محمد الشيخ⁴ سنة 1557م؛ توارث أفراد الأسرة السعدية الحكم، وكان من بين أشهرهم السلطان أحمد

¹ - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 51-61؛ حركات، المرجع السابق، ص 174.

² - استفرد محمد الشيخ بالسلطة بعد ما حسم الخلاف بينه وبين أخيه أحمد الأعرج في معركة الكاهرة سنة 1544م، حيث التقى وتحارب الأخوان وانتصر محمد الشيخ، وفر أحمد الأعرج إلى سجلماسة أين انتهى أمره. انظر: الأفراني، **نزهة الحادي**، ص 21-22؛ عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 55-60.

³ - الأفراني، **نزهة الحادي**، ص 30 وما بعدها؛ عبد الكريم كريم، المرجع السابق ص 65-73؛ حركات، المرجع السابق، ص 174-175.

⁴ - عن نهاية محمد الشيخ؛ فقد دبرت مؤامرة اغتياله من العثمانيين، حيث لجأت إليه فرقة من العثمانيين على أساس أنهم فروا من الدولة العثمانية وأرادوا العمل عنده، في حرسه الخاص وتظاهروا بالطاعة والولاء فاطمئن إليهم، فضمهم إلى حرسه، وقد كانوا مكلفين باغتياله، وهذا ما تم فعلا حيث اغتيل سنة 1557. انظر: الأفراني، **نزهة الحادي**، ص 42-44؛ عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 85.

المنصور الذهبي (986-1012هـ / 1578-1603م) الذي تولى الحكم بعد المعركة المشهورة بوادي المخازن سنة 1578م التي درات بين محمد بن عبد الله الذي تحالف مع الملك البرتغال سبستيان على مساعدته لاسترجاع ملكه من عمه أبي مروان عبد الملك ولجى هذا الأخير طلبه وخرج سبستيان بنفسه مع جيشه لمحاربة أبي مروان عبد الملك والتقى الملوك الثلاثة: (الملك سبستيان، السلطان محمد بن عبد الملك وأبو مروان عبد الملك) في وادي مخازن عام 1578م وقتل الملوك الثالث، وكان أحمد المنصور أخو أبي مروان وقتها قائد الجيش مع أخيه وخليفته وتمت بيعته في المعركة التي كانت النقطة الفاصلة في حياة الدولة السعدية¹، حيث تعتبر فترة حكم المنصور من أزهى الفترات في تاريخ الدولة السعدية، فقد وسَّع رقعة المغرب الأقصى، واستولى على السودان الغربي، وبهذا تمسك بطرق التجارة وفي نقاط الربط الأساسية بين قوى الشرق والغرب².

وبعد وفاته؛ دخلت الدولة السعدية، مرحلتها الأخيرة بسبب تنافس أبنائه على السلطة، فعرف المغرب الأقصى معارك طاحنة أدت إلى مقتل أعداد هائلة من الرجال، وكان السبب الأول فيها نزاع أبنائه على السلطة³، فاستنزفت قوتها، وانحصر نفوذها في مدينة مراكش وضواحيها، كما كان تخاذلهم ومسايرتهم للإسبان سببا في وقوع بعض الأماكن تحت الاحتلال، وعلى رأسها العرائش عام 1610م، والمعمورة 1614م، وحدثت القطيعة بينهم وبين الرعية⁴، فيما تشكلت في بقية المناطق التي كانت تابعة لها، إمارات صغيرة وزعامات دينية سيرت المغرب في إطار التفتت والتجزئة، مما أدى في النهاية إلى خروج منطقة السوس ودرعة والصحراء وجزء من بلاد السودان عن الحكم السعدي، واستقل بها الشيخ بودميعة، وفي السواحل المغربية الأطلسية ظهرت الحركة العياشية، في حين

¹ - مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكميلية، تحقيق، عبد الرحيم بنحادة، ط1، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش المغرب الأقصى 1994، ص ص 58-62. الأفراني، نزهة الحادي، ص ص 56-78.

² - الأفراني، نزهة الحادي، ص ص 78-164؛ حركات، المرجع السابق، ج2، ص ص 296-298.

³ - انظر: الأفراني، نزهة الحادي، ص ص 190-196؛ أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية، ج6، تحقيق ولدي المؤلف، جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء- المملكة المغربية، 1418هـ / 1997م، ص 5-9.

⁴ - عبد الطيف الشاذلي، المجاهد السلاوي محمد بن أحمد العياشي، من تاريخ المغرب في القرن السابع عشر، ط2، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس مطبعة الأمنية، الرباط- المملكة المغربية، 2012م، ص ص 36-39.

قامت الزاوية الدلائية بقيادة محمد الحاج بالاستقلال بالمنطقة الوسطى للبلاد، مما أسفر عن انخيار الأسرة السعدية¹.

2- قيام الأسرة العلوية:

أ- قيامها:

بعد استفحال الشتات والتمزق الذي أصيبت به وحدة المغرب الأقصى في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، وفي هذا الوضع المتأزم الذي عرفه المغرب عقب تدهور الأمور الدولة والسعدية وتشتت، بادر أهل سجلماسة إلى مناصرة أسرة الأشراف العلويين بمدينة سجلماسة²، وأجمع أهل الحل والعقد على مبايعة شخصية الشريف بن علي سليل الأسرة العلوية، الذي تنازل عن البيعة لابنه محمد بن الشريف (1640-1658م)، المؤسس الفعلي للدولة الناشئة، وقد خاض أنصار العلويين حرباً ضروساً ضد مقاومة أبي حسون في درعة إلى أن تمكنوا من إجلائهم منها، فأصبح النظام الجديد يتحكم كلياً في سجلماسة ودرعة، وبعدها تلقى بيعة أهل فاس بصفة تلقائية عام 1649م، فحكم الدولة ما يقارب العشرين سنة³.

¹ - حركات، المغرب، ج3، ص ص 14 - 15.

² - يرجح تواجد هذه الأسرة الشريفة بالمغرب أنه كان بإيعاز من جماعة من الحجاج الذين وردوا على الحجاز قادمين من سجلماسة التي خلت من الأشراف في القرن السابع الهجري، الثالث عشر ميلادي، ورغبة من أهل سجلماسة في استقدام نسل الأشراف فاتصلوا في ينبع - واحة صغيرة على البحر الأحمر - بالقاسم والد الحسن الذي وافق على إرسال نجله هذا للاستقرار بسجلماسة، فحل بها وتزوج من إحدى بنات الشيخ أبي إبراهيم، وتوفي سنة 706هـ / 1306م وفي رواية 707هـ / 1307م، ودفن وسط مدينة سجلماسة، ومن عقبه علي الشريف الأول الذي استطاع الاستقرار بمدينة فاس، وخلف من الأولاد علي الثاني الذي من أحفاده المباشرين علي الشريف دفين مراكش وجد ملوك الدولة العلوية. أنظر: السلاوي، الاستقصا، ج4، ص 7؛ حركات، المغرب، ج3، ص ص 17-18.

³ - Robert Mantran, **Les grandes dates de l'Islam**, Entreprise Nationale du livre, Larousse, Paris, 1990, p114

ب- المغرب الأقصى تحت حكم العلوي:

تعاقب على حكم الدولة العلوية بعد محمد بن الشريف مجموعة من السلاطين، تميزت عهودهم بالقوة تارة، وبالدخول في صراعات بين أفراد البيت الواحد تارة أخرى، فاستطاعوا كسر شوكة الدلائيين والعياشيين¹ من المعارضين، وعملوا على توحيد المغرب، ومن بين أهم الأحداث التي ميزت تاريخ هذه الدولة في الفترة محل الدراسة، هو فتح مراكش عام 1669م، في عهد السلطان الرشيد، وتحرير كل من المهدية سنة 1681م وطنجة عام 1684م والعرائش 1689م وأصيلا عام 1691م من الاحتلال البرتغالي والإسباني في عهد السلطان إسماعيل (1672-1727م)².

وبعد وفاة هذا الأخير؛ دخل المغرب الأقصى في فوضى كان سببها هيمنة الجيش وصراع الأسرة العلوية على العرش بين أبناء إسماعيل، دامت هذه الأزمة حوالي ثلاثين سنة، تأرجح فيها العرش من أخ، لآخر، إلى أن استطاع الأمير محمد بن عبد الله، حفيد إسماعيل، أن ينهي الفوضى بأرجاء المغرب تحت سلطته. وما إن استقر له الوضع بدأ بعملية الإصلاح العام في كل الميادين، فعمل على تحديد الجيش النظامي، وضبطه وتقسيمه إلى مجموعات حتى يستطيع السيطرة عليه، وقد اتبع السلطان محمد سياسة محكمة في العرش العلوي، وثبت حكم المغرب لأسرته التي تمكنت من البقاء على سدة الحكم إلى يومنا هذا³.

¹ - حول الحركة العياشية. انظر: عبد الطيف الشاذلي، المرجع السابق، ص 111، وما بعدها.

² - حركات، المغرب، ج3، ص ص 24-30، 32-59. وانظر أيضا:

Manteau, Op.cit , p115.

³ - حركات، المغرب، ج3، ص 118. وانظر أيضا:

Manteau, Op.cit , p115.

المحور السابع:

تطور نظام الحكم بتونس

تمهيد:

عرف نظام الحكم في تونس بعد انضمامها للدولة العثمانية عدّة أوجه، كان بدايته نظام الباشوات والدّايات، ثم أتبعه نظام الأسر التي كانت سلطتها شبه مستقلة شكليا، إلا أنّها تابعة إسميا للدولة العثمانية، تناوب على الحكم فيها عدد من أفراد نفس الأسرة، والأسرتان اللتان حكمتا تونس هما الأسرة المرادية والأسرة الحسينية. ومن خلال ما سبق: ما هي أبرز ملامح الأنظمة التي حكمت تونس خلال الفترة الحديثة؟

1- نظام الباشوات والدّايات:

عرفت تونس في بداية ارتباطها بالدولة العثمانية تطبيق نظام الباشوات والذي دام ما بين (1574-1591م)¹ يشرف على تسييرها الباشا المعيّن لمدة ثلاث سنوات مع الاستعانة بضباط من فرقة من الجيش الانكشاري الذين ينتمون إلى مؤسسة الديوان. لكن هذا النظام حمل في طياته بذور نهايته؛ فقد كانت سلطة الباشا نظريا، السلطة الأولى للجهاز السياسي- العسكري بالإيالة، ولكن الضباط المشتركين في الديوان فرضوا تواجدهم منذ البداية، فبرزت ثنائية السلطة داخل هذا الجهاز، فتقلصت سلطة الباشا خصوصا وأن مدة حكمه قصيرة، فلم يستطع منع تزايد نفوذ طائفة الانكشارية في الديوان، فأضحت كل الصلاحيات بيد المجلس العسكري وهمش الباشا تماما، وعرفت الإيالة في هذه الفترة تمردات بعض القبائل ولم تستطع فرق الانكشارية إخمادها، وأمام هذا الوضع المتأزم تقلصت عائدات الإيالة، وبرزت بؤادر أزمة مالية اقتصادية حادة، فاستغل الجند الفرصة؛ وقاموا بانقلاب عسكري في أكتوبر 1591م، ضد كبار الضباط؛ ترتب عنه إعادة هيكلة النظام العثماني بتونس وبروز نظام الدّايات².

ثم جاء نظام الدّايات الذي استمر إلى حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي، وبعد الانقلاب الذي أطاح بكبار الضباط في الجيش الانكشاري؛ انقسم الديوان إلى مجموعات كل مجموعة

¹ -A.Masmoudi et M.Smida, **Tunis au XVI siècle de la chute des Hafside à l'installation des turcs**, société tunisienne de diffusion, Tunis, 1983., P22

² -الأرقش، وآخرون، المرجع السابق، ص ص55-57.

يرأسها داي وحاولوا إقامة مجلس مشترك، إلا أن هذا الوضع دام سبع سنوات فقط، ولم يعط نتائج مرضية، فاستأثر عثمان داي سنة 1598م بكلّ السلطة وفتح عهداً جديداً هو عهد سيطرة الدايات وتميز هذا العهد بإصلاحات شملت جميع الميادين، خاصة ما يتعلق بالجهاد البحري¹.

2- الأسرة المرادية والحسينية:

دخلت تونس في عهد جديد عرف **بالعهد المرادي**، الذي ينسب إلى مؤسسه مراد كورسو وهو مملوك لرمضان باي، تحصل سنة 1631م على لقب الباشا من الباب العالي، وعمل على توريث حكم الإيالة لابنه محمد بن مراد باي المعروف بمحمودة باشا الذي تحصل على لقب الباشا سنة 1658م²، أصبحت الأسرة المرادية تحكم بصفة رسمية إيالة تونس، والملاحظ في حكم المراديين أنهم حوّلوا نظام الحكم إلى النظام الوراثي³، وساهموا في تزويد الجيش بالعنصر المحلي، واستعانوا بأعيان البلاد في تصريف شؤون الدولة؛ وبهذا أضعفت سلطة الطائفة العثمانية. وشيئاً فشيئاً أصبح الباي هو الحاكم الأول للبلاد، مع ما توفر له من إمكانيات اقتصادية وعسكرية، ولكن مع حلول الربع الأخير من القرن السابع عشر ميلادي شهدت الدولة المرادية بوادر نهايتها، فعرفت الإيالة أزمة اقتصادية بسبب تدني الإنتاج الزراعي، وظهور المجاعات والأوبئة، كما نشبت الصراعات على الحكم بين أفراد الأسرة، ومما زاد تعقيد الأمور التدخل المستمر لدايات الجزائر في تأييد طرف على الآخر. وفي سنة 1705م تعرضت البلاد لتدخل داي الجزائر الذي أسر إبراهيم الشريف أغا آخر داي في العهد المرادي، وبقيت البلاد في حالة فراغ سياسي، فوقع في أزمة خطيرة، وخوفاً منهم من تسلط داي الجزائر على إيالة تونس؛ اتفق أهل الحل والعقد، وأعيان البلاد، وضباط الجند على مبايعة حسين بن

¹ - الأرقش، وآخرون، المرجع السابق، ص ص 57-58.

² - انظر:

A.Masmoudi et M.Smida, Op.cit, PP 37-40.

³ - حول بايات المرادية انظر: محمد بن خوجة، صفحات من تاريخ تونس، تحقيق حمادي الساحلي، الجيلاني بن الحاج يحيى، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت- لبنان، 1986م، ص ص 48-56.

علي - آغا الصبايحية- باشا على البلاد في نفس السنة، وقد استطاع الباي الجديد أن يبعد الخطر الخارجي، ويحقق الاستقرار. وتعد هذه البيعة التاريخ الرسمي لميلاد العهد الحسيني¹.

وأخيرا يأتي **العهد الحسيني**: الذي يبدأ بتولية حسين بن علي باشا، على إيالة تونس من طرف أهل الحل والعقد سنة 1705م، ثم حصوله على الشرعية في حكم الإيالة من الباب العالي سنة 1706م حين أرسلت إليه فرمان التولية، كما نجح في توطيد الحكم بإحداث توازن سياسي وإداري بين مختلف فئات المجتمع من الكراغلة وأعيان البلاد بإشراكهم في جهاز السلطة، مما قلل صلاحيات العنصر العثماني. وعرفت الأسرة الحسينية مشاكل خصوصا على عهد حسين باي الذي حاول تثبيت الاستقرار في الإيالة وتوفير الأمن؛ إلا أنه لم يسلم من تدخلات دايات الجزائر، الذين ساندوا ابن أخيه علي باشا سنة 1735م على الانقلاب على عمه، مما أدخل البلاد في الحرب بين حسين بن علي وابن أخيه علي باشا، إلى أن استعادت الدولة الحسينية الحكم بعودة أبناء حسين بن علي للسلطة فعاشت في فترة استقرار طويلة نسبيا. وبلغ هذا العهد أوج قوته في حكم حمودة باشا الحسيني (1782م - 1814م)²، وقد استمر حكم الأسرة الحسينية إلى غاية الحماية الفرنسية سنة 1881م³.

¹ - لتفاصيل أكثر أنظر: الشريف، محمد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، ط 3، دار سراس للنشر، تونس، 1993، ص ص 77-81؛ الأرقش، وآخرون، المرجع السابق، ص ص 58-62.

² - رشاد الإمام، «سياسة حمودة باشا في تونس 1782 - 1814م»، المجلة التاريخية المغربية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ع 6، زغوان- تونس، 1976م، ص ص 11-115.

³ - انظر: الأرقش، وآخرون، المرجع السابق، ص ص 62-67؛ محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص ص 81-92.

المحور الثامن: تطور نظام الحكم في طرابلس

تمهيد:

عرف نظام الحكم في طرابلس بعد نضامها للدولة العثمانية عدّة مراحل، كان أولها العهد العثماني الأول، الذي أعقبه حكم الأسرة القرمانلية، ثم جاء العهد العثماني الثاني. وكان لكل عهد مميزاتة السياسية ونظام الحكم الخاص به.

1- مرحلة العهد العثماني الأول (1551-1711م):

عمل الولاة العثمانيون الأوائل في هذه المرحلة؛ على تثبيت ومحاولة فرض الأمن وتشديد وتنظيم شؤون الإيالة، وتجنّد الإشارة أن حكام هذه المرحلة ابتداء من مراد آغا عملوا على صد الحملات المسيحية، وتحرير المدن المحتلة ومحاولة فرض النظام، كما أنهم قاموا بحركة تعمير بالمدن الكبرى، إلا أن هذه المرحلة عرفت اضطرابات داخلية كثيرة. ومن المفيد أن نذكر أن النظام الإداري الذي أقيم في ولاية طرابلس، كان في البداية تابعا لأمير الأمراء بالجزائر، فهو المخول بتعيين حاكمها، إلى غاية إلغاء هذا النظام من الأستانة بعد وفاة العلي سنة 1587م، وكان طمع ضباط الانكشارية في المشاركة في السلطة في بداية هذه المرحلة، ألزم إلى تغيير النظام، بنظام الداوي والديوان، إلا أن تلك المرحلة لم يكتب لها الاستمرار، فبعد الساقزي عثمان باشا (1649-1672م)، تولى الحكم ولاية ضعاف لم يستطيعوا فرض أنفسهم لا على الجيش الانكشاري، ولا على الأهالي الذين زادت تمرداتهم، فأصبحت البلاد بنكسات من جراء هذه الأوضاع؛ مما مهد لإنهاء هذا النظام عام 1711م¹.

2- مرحلة حكم الأسرة القرمانلية (1711-1835م):

ارتبطت هذه المرحلة بظهور شخصية أحمد باشا القرمانلي (1711-1745م)، الذي تمكن بمساعدة قبائل غريان، من تولي منصب الداوي بطرابلس سنة 1711م، ثم الحصول على فرمان التولية من الباب العالي سنة 1722م، وقد عرفت طرابلس على عهده ازدهارا ملحوظا في جميع المجالات،

¹ - نيكولاي ايايتش بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، ترجمة عماد حاتم، ط2، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، 2001م، ص ص 28، وما بعدها، 72-100؛ خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ط3، الدار العرب للكتاب، ليبيا، 1997م، ص ص 76-99؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص ص 215-320.

كما أنّه أحدث تغييراً في طريقة اختيار الداي الذي يخلفه؛ إذ جعل هذا المنصب متوارثاً في عائلته، فجاء بعده ابنه محمد (1745-1754م)، ثم حفيده علي بن محمد (1754-1793)، وبعدها استمر الحكم في أفراد الأسرة إلى غاية سنة 1835م، وعرفت الولاية في آخر عهدها اضطرابات، فأقدمت الدولة العثمانية، على إنهاء حكم هذه الأسرة¹.

3- العهد العثماني الثاني (1835-1911م):

آخر محطة من مراحل الحكم العثماني بطرابلس، وكان أوّل داي لهذا العهد هو مصطفى نجيب باشا، الذي تم تعيينه من الباب العالي سنة 1835م، وقد عمل الولاة الأوائل على إصلاحات في شتى الميادين، أولها إنهاء حالة الفوضى وتحقيق الأمن، واستمر هذا العهد إلى غاية وقوع طرابلس تحت وطأت الاستعمار الإيطالي سنة 1911م².

¹ - النائب الأنصاري، نفحات النسرین، ص ص 40-42؛ عمر علي بن اسماعيل، إختيار حكم الاسرة القرمانيّة، ص ص 323-327 ؛ نيكولاي ايايتش بروشين، المرجع السابق، ص ص 104-166، إيتوري روسي، المرجع السابق، ص ص 322-419.

² - إيتوري روسي، المرجع السابق، ص ص 421-479؛ نجم الدين غالب الكيب، مدينة طرابلس عبر التاريخ، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978م، ص ص 103-111.

المحور التاسع:
العلاقات المغاربية الخارجية
(المشرق العربي، إفريقيا، أوروبا)

تمهيد:

ارتبطت بلاد المغرب خلال الفترة الحديثة بعلاقات خارجية مع غيرها من الأقطار والبلدان، فكانت علاقاتها مع البلاد المشرقية عريقة، متجذرة في التاريخ لارتباطهما برابط الدين والتاريخ المشترك، ولكونهما إيلات تابعة للدولة العثمانية خلال الفترة الحديثة، واتسم نوع تلك العلاقات بالجانب السياسي والاقتصادي والتجاري والعلمي، وبالتالي فقد ارتبطتا بعلاقة تكاملية- رسمية في آن واحد، ونفس الشيء بالنسبة لعلاقة بلاد المغرب مع مقر الحكم العثماني بإسطنبول والتي تمثلت في علاقة تبعية من الناحية السياسية والإدارية والعسكرية.

وكانت طبيعة العلاقة الموجودة بينها وبين أوروبا في مجملها تتأرجح ما بين العداء تارة، والسلم تارة أخرى، وذلك نتيجة الأطماع الأوربية في نيل مكاسب بالمنطقة والصراع العسكري الذي تمثل بداية في الهجمة الإيبيرية على سواحل بلاد المغرب والتي انجر عنها التدخل العثماني ثم التبعية للباب العالي، ولما عرفته المنطقة فيما بعد من حملات عسكرية فرنسية وجنوية وإيطالية، والتي كانت في أغلبها تنهزم من طرف البحرية الجزائرية والتونسية والطرابلسية التي تأسست وقوية مع نهاية القرن السادس عشر ، وأصبحت في أوج قوّتها في القرن السابع عشر ميلادي.

هذا، وقد ارتبطت بلاد المغرب مع أوروبا من خلال العلاقات الاقتصادية والتجارية، التي كانت في بدايتها تشكّل مكسبا للحكام سواء في الجزائر أو تونس أو طرابلس أو المغرب الأقصى، من خلال ما كان يدخل إلى الخزينة من أموال الصادرات، قبل أن تنقلب الموازين وتصبح الدول الأوربية هي المستفيد الأكبر ، كما ارتبطت بعلاقات دبلوماسية من خلال السفراء والقناصل الأوربيين الذين كانوا يحلون ببلاد المغرب ويحملون معهم الإتاوات السنوية والهدايا القيمة، قبل أن ينقلب الوضع خلال القرن الثامن عشر ويتحول هؤلاء القناصل إلى صائدي فرص هدفهم هو نيل الامتيازات من حكام بلدان المغرب، وقد كانت هذه الامتيازات إحدى الثغرات التي انسل من خلالها العدو الأوربي إلى جسد البلاد العربية عامة والتي تحولت شيئا فشيئا لحقوق شرعية في نظرهم أسالت لعابهم في اكتساب خيرات البلاد لتتحول فيما بعد إلى شكل آخر من أشكال الاستغلال الذي تمثل في الاحتلال، فكانت إيالة الجزائر أوّل قطعة تسلب من جسم البلاد العربية.

1- العلاقات الاقتصادية والتجارية:

كان لازدهار النشاط الحرفي والصناعي ببلاد المغرب، وخاصة بالعواصم الكبرى في كل من الجزائر، تونس، طرابلس والمغرب الأقصى، أثره على انتعاش التجارة والاقتصاد الداخلي بشكل عام، وعلى التجارة والاقتصاد الخارجي بشكل خاص مع بلاد المشرق وإفريقيا والدول الأوربية، ولم يقتصر ارتكاز التجارة على المدن فحسب؛ بل عرفت الأسواق الريفية أيضا حركة معتبرة وتحولت إلى مراكز تجارية للجهات القريبة منها، لانتشار النشاط التجاري ببلاد المغرب، وأصبحت المدن المهمة محاور رئيسية للنشاط التجاري، وساعد على ذلك كونها مقر للجهاز الإداري المركزي والإقليمي ولاستقرار قسم مهم من الجند والتجار بها، واتصالها بالخارج، هذا ما جعلها تكون محطات للتصدير ومستودعات للإنتاج المحلي ومراكز لاستيراد البضائع والسلع من الخارج، وهذا ما ساعد على تطوير التجارة وانتشار الأسواق خاصة بعواصم الولايات، وهي: مدن الجزائر، تونس، طرابلس.

ومما ساعد على انتعاش التجارة الخارجية، أنّ أغلب المدن الرئيسية للولايات العثمانية، مثل: تلمسان والجزائر وقسنطينة وعنابة وتونس وسوسة وصفاقس وطرابلس وبنغازي وتاجوراء وغيرها من المدن كانت تقوم بالتبادل التجاري المحلي استيرادا وتصديرا عن طريق القوافل التي جعلت منها محطات تنطلق منها إلى المغرب الأقصى وأقطار المشرق وأقاليم السودان، فمدينة تونس مثلا كانت بمثابة محطة مهمة لقافلة المغرب الأقصى القادمة من مدينة فاس، والتي تصل إليها في مدة ثلاثة أشهر بعد مرورها على جملة من المدن، كتلمسان والجزائر والقسنطينة. وتقدر قيمة ما تحملة من النقود الذهبية والتبر والسلع المختلفة: بمئة ألف جنيه إسترليني، ولا تقل عنها أهمية القافلة الفصلية المنطلقة من قسنطينة والتي كانت تحمل إلى أسواق تونس كميات مهمة من الشمع والجلود المجففة وقطعان المواشي والغنم والأبقار، التي تقدر قيمتها بحوالي عشرة آلاف قرشٍ إسباني سنة 1806م، تحصل في مقابلها على حمولات من الشاشية والأقمشة المصنوعة محليا أو المجلوبة من أوروبا مع كميات مهمة من الحلبي والعطور والأدوات الحديدية والتوابل وغيرها¹

¹ ناصر الدين سعيدوني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب) من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، قسم التاريخ كلية الآداب، جامعة الكويت، رسالة 318، حوليات

وقد حافظت مدينة طرابلس على علاقاتها التجارية مع بلاد السودان، عبر الصحراء التي كانت تنقل إليها عدّة بضائع و سلع منها: العبيد والعطور والجلود وريش النعام والعاج وأقمشة السودان، لتشتري مقابلها الأقمشة والأدوات الحديدية والأغطية والبرانس وغيرها¹.

وفي إطار التبادل التجاري الخارجي للولايات العثمانية، أصبحت المدن المهمة، مثل: الجزائر، عنابة، القالة، بنزرت، تونس، سوسة، صفاقس، طرابلس، على اتصال مباشر مع الموانئ الشرقية لا سيما إستطانبول ودوبروفنيك وإزمير وبيروت والاسكندرية، وعلى سبيل المثال وصلت هذه الموانئ إلى تونس 29 سفينة تجارية بين سنتي (1712-1792م)، و 126 سفينة ما بين (1820-1826م)².

أما المبادلات مع أقطار المشرق فقد كانت تعتمد في أساسها على المواد الكمالية التي يقبل عليها سكان المدن، فقد اشتملت صادرات الولايات العثمانية إلى المشرق على أنواع من الشاشية المحلية والزرايبي والأغطية والحبال والبرانس الصوفية وبعض الأنواع من الإنتاج الزراعي، في حين اقتصرت الواردات من بعض الأقطار العثمانية على أصناف من الصناعات التقليدية مثل الزرايبي الفاخرة والخناجر المطعمة وخيوط الحرير وسبائك الذهب والأقمشة الحريرية وبعض التوابل والعطور وكميات من الأرز والسكر³.

وقد حظيت المدن الساحلية لبلاد المغرب بعلاقات تجارية وثيقة مع المرافئ الأروبية الرئيسية على البحر المتوسط، مثل: مالطة، نابولي، ليفورن، جنوة، البندقية، مرسيليا، برشلونة، أليكانت، جبل طارق. واستحوذ تجار ليفورن ومرسيليا جل المبادلات بحكم الاتفاقيات العديدة وعملا بنظام الامتيازات الذي خول لوكلائهما شراء المواد الأولية من حبوب وصوف وجلود وزيت وشمع وتمر ومرجان وإسفنج وغيرها، كما سمح لهم بتصدير أغلب السلع والبضائع الأروبية، وهذا ما تؤكد حركه الملاحة التجارية بينهما وبين مراسي مدن الجزائر وتونس وطرابلس، فقد بلغ عدد السفن التجارية

الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الحادية والثلاثون، فصلية علمية محكمة تصدر عن المجلس العمي جامعة الكويت 2010/1431م، ص 39.

¹ سعدوني، المرجع السابق، ص ص 39-40.

² المرجع نفسه، ص 40.

³ المرجع نفسه، ص 42.

الواصله إلى ميناء ليفورن ما بين (1794-1830م) إلى 362 سفينة، منها: 133 من الجزائر ومثلها من تونس و96 سفينة من طرابلس، كما استقبل ميناء مرسيليا في نفس الفترة 96 سفينة من تونس¹، وكان هؤلاء التجار يتحصلون من عواصم الإيالات العثمانية على كميات من السلع، تمثل نسبة كبيرة من صادراتها.

وقد أدت عدة أسباب إلى الحد من تطور المبادلات التجارية لكل من الجزائر وتونس وطرابلس وتحقيق فائض تجاري لصالحها مع مطلع القرن الثامن عشر، أهمها:

- ركود الإنتاج الحرفي وتضاؤل المحاصيل الزراعية وصعوبة المواصلات الداخلية وارتفاع كلفتها، فحمولة التمر مثلا من توغرت ارتفع ثمنها من 15 فرنكا إلى 400 فرنك عند نقلها إلى مدينة الجزائر سنة 1830م.
- تحول تجارة السودان من محطات الصحراء إلى موانئ إفريقيا الغربية على الأطلسي وارتباطها مباشرة بالموانئ الأوروبية بعد أن انعدم الأمن في المناطق الصحراوية بسبب النزاع القبلي وإهمال الحكام تأمين تنقل القوافل، وأثره السلبي على التجارة ببلاد المغرب.
- انكماش التبادل التجاري لولايات المغرب العثمانية في القرن الثامن عشر الميلادي جراء عدم الأخذ بنظام جمركي واحد يخدم التبادل التجاري، فقد أدت المعاهدات المتكافئة مع الدول الأوروبية مثل التي وقعها حكام الجزائر وتونس مع إنجلترا (أواخر القرن السابع عشر ميلادي) إلى تخفيض الرسوم على البضائع الأوروبية وإنقاص رسوم السفن².

2- العلاقات الدبلوماسية:

شكّلت الجانب الدبلوماسي جزء كبيرا من العلاقات الخارجية لبلاد المغرب خاصة مع الدول الأوروبية، ففي أوج قوّة الإيالات الثلاث وكذا الدولة السعدية بالمغرب الأقصى، كانت الدول الأوروبية تسعى لكسب وُدّ الحكام عن طريق إرسال الإتاوات السنوية والهدايا مع القناصل، وكذلك نتيجة لإبرام الاتفاقيات والمصادقة على المعاهدات بين هذه الأطراف، وكانت قيمة هذه الإتاوات تختلف بحسب قوة بحرية كل بلد مغربي وإمكانياته التجارية، وعلى سبيل المثال صرفت إسبانيا سنة 1790م

¹ سعدوني، المرجع السابق، ص 40.

² المرجع نفسه، ص 41.

مبلغا مقداره 37973599 ريالاً إسبانيا من أجل إبرام معاهدة السلم وتجارة مع إيلات المغرب، فكان نصيب إيالة الجزائر: 35258977 ريالاً، وحصة طرابلس: 2141570 ريالاً، أما تونس فكان نصيبها: 573052 ريالاً¹. ومن ذلك أنّ مقاطعة البندقية دفعت سنة 1763م إتاوات للجزائر تقدر بحوالي 50000 ريال بندقية، ولتونس 40000 ريال سنة 1792م، ولطرابلس 35000 ريالاً سنة 1763م. وبالإضافة إلى الإتاوات، كان الأوربيون يتملقون بالهدايا القيمة والثمينة، فقد قدّرت قيمة هدايا قنصل فرنسا المقدمة لديوان الجزائر سنة 1763م بـ: 13200 جنيه فرنسي، وارتفعت سنة 1791م إلى 48000 جنيه، لتتخفض سنة 1811م إلى 16000 جنيه².

وقد تحولت العلاقات الدبلوماسية فيما بعد إلى أسلوب جديد وهو أسلوب منح الامتيازات التجارية للدول الأوربية وإعطاء حقوق للتجار الأجانب والسماسة اليهود هو المعتمد الذي دأب الحكام في كل من تونس والجزائر وطرابلس على انتهاجه عملاً بالتقاليد العثمانية بين سليمان القانوني وفرانسوا الأول (1535م)³. أدى إلى إلحاق أضرار بليغة بالنشاط التجاري وآثار سلبية على القدرة الاقتصادية لولايات المغرب العثمانية، وأدى إلى توتر وصراعات مزمنة بسبب اختلاف الرؤى، فعلى الرغم من أنّ نظام الامتيازات كان في ظاهره يمس الجانب الاقتصادي؛ إلا أنّه أدّى إلى حقوق سياسية شرعية في النظرة الأوربية، وتوسع مع الوقت ليختصر الرغبة الأوربية في التوسع على حساب البلاد العربية، فقد نظر الانجليز والفرنسيون خاصة إلى تلك الامتيازات على أنّها حقوق مكتسبة بينما اعتبرها حكام الجزائر وتونس وطرابلس تسهيلات تجارية تخول للأوربيين شراء المواد الأولية وتصدير السلع الضرورية لفائدتهم، مما أدى إلى نقض الكثير من الاتفاقيات والمعاهدات المبرمة بين حكام ولايات المغرب العثمانية والدول الأوربية⁴.

¹ سعدوني، المرجع السابق، ص 26.

² نفسه.

³ جان كلود زليتنر، طرابلس ملتقى وبلدان وسط افريقيا 1500-1795، ترجمة جاد الله عزوز الطلجي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط 1، ليبيا، 2001م، ص 224.

⁴ سعدوني، المرجع السابق، ص 38.

وفي الوقت ذاته واجهت بلدان المغرب اختراقات للمعاهدات التي أبرمتها مع الأوربيين سواء المعاهدات المباشرة بينهم وبين الدول الأوربية أو المعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية، فبعد كارثة ليبانت، أصبحت الدولة العثمانية في موقع ضعف لذا حاولت فرنسا خرق المعاهدات المبرمة، منها معاهدة 1535م والتي بموجبها تحصّلت فرنسا على عدّة إمتيازات في الدولة العثمانية والإيالات التابعة لها منها الجزائر التي حصلت فيها تأسيس مراكز تجاريّة في القالة وعنّابة، وبذلك تحكمت في صيد المرجان¹.

3- العلاقات العسكرية:

انقسمت العلاقات العسكرية لبلدان المغرب وخاصة الإيالات الثلاث مع غيرها من الدول إلى ثلاث أنواع، الأول تمثل في التحالفات العسكرية خاصة مع الدولة العثمانية من خلال مساعدة الأساطيل كل من الجزائر، تونس وطرابلس في حروبها البحرية، أو مساعدة وأصدقاء حلفاء الدولة العثمانية، ومن ذلك وقوف البايبراي خير الدين سنتي (1542-1543م) إلى جانب الأسطول الفرنسي بقيادة فرانسوا الأول ضد الإسبان، ومشاركة الأسطول الجزائري بقيادة عروج علي إلى جانب الدولة العثمانية في معركة ليبانت سنة 1571م، ضدّ الأسطول المسيحي المتحالف (إسبانيا والبندقية)، وقد فقدت الدولة العثمانية الكثير من سفنها، و لحسن حظّها أنّ الجزائر برزت على السّاحة الدوليّة، حيث قام أسطولها بمأّ الفراع الذي تركه الأسطول العثماني وتمكن عروج علي من تجديد الأسطول العثماني في ظرف قياسي دام سنة واحدة بعد كارثة ليبانت، كما ساهم عروج علي في فتح تونس سنة 1574م، ومن مظاهر مساندة العثمانيين أيضا مشاركة الجزائر في حصار مالطا سنة 1565م².

¹- حول موضوع المعاهدات بين دول المغرب ودول الأوربية. أنظر: ياسين صنديد، الأسرة الحسينية ودورها في العلاقات السياسية والاقتصادية بين تونس وفرنسا (1117-1197هـ/1705-1782)، مذكرة ماجستير، تخصص تاريخ حديث، جامعة غرداية، 2012-2013م؛ عبد القادر فلوح، العلاقات الجزائرية - العثمانية، في الفترة (1233-1246 / 1818 - 1830) على ضوء وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية، مذكرة ماجستير، في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، 2009-2010م.

²- خليل الساحلي، «وثائق عن المغرب العثماني أثناء حرب مالطة سنة 1565»، المجلة التاريخية المغربية، ع7-8، زغوان-تونس، جويلية 1977م، ص ص 41-60.

وتمثل النوع آخر من العلاقات العسكرية في مجابهة الهجمات الأوربية على سواحل بلاد المغرب، والتي كانت بدايتها محاربة الاحتلال الإسباني والبرتغالي للمدن المغربية، وأتبعه الصدامات العسكرية لبقايا الوجود الإسباني ببلاد المغرب، والذي تمثل في منطقتين، وهران بإيالة الجزائر، وسبتة في المغرب الأقصى، فبالنسبة لوهران مثلاً، قام حكام الجزائر بمحاولة تحريرها إلى أن تم التحرير النهائي لها سنة 1792م¹.

¹ - أنظر حول الموضوع: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، مطابع دار البعث، قسنطينة، الجزائر، د.ت.

المحور العاشر:
الحياة الاجتماعية والاقتصادية في
بلدان المغرب الحديث

تمهيد:

تتأثر الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات بما يحيط بها من أحداث سياسية، فتزدهر بالاستقرار واهتمام لسلطة بالتشييد العمراني وبالنشاط الفلاحي والصناعي والتجاري، والعكس من ذلك في حال دخول البلدان في اضطرابات وحروب وعدم استقرار تتدهور الأوضاع الاجتماعية فتحدث المجاعات والأوبئة ويفقد النشاط الفلاحي والصناعي والتجاري حيويته، ما يؤثر على حياة الفرد في ظل تلك الظروف. ومن خلال هذا: كيف كانت الحياة الاجتماعية والاقتصادية ببلاد المغرب في ظل الاضطرابات السياسية وما نتج عنها من احتلال إيبيري لسواحلها التي شهدتها نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر ميلادي؟ وكيف أصبحت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للإيالات الثلاث: الجزائر، تونس، طرابلس بعد انضمامها للدولة العثمانية؟ وكذا المغرب الأقصى بعد قيام الدولة السعدية به ومن بعدها الدولة العلوية؟

1- الحياة الاجتماعية:

مرّت بلدان المغرب مع نهاية القرن التاسع الهجري، الخامس عشر ميلادي، وبداية العاشر الهجري، السادس عشر ميلادي أوضاعا اجتماعية صعبة نتيجة لما مرّت به من اضطرابات داخلية وعدوان خارجي تمثّل في الاحتلال الإيبيري لسواحلها، فقد كثر الغلاء مما أثر على قدرة الفرد المعيشية، بالإضافة إلى انتشار الأوبئة والمجاعات بالإضافة إلى بعض الظواهر الطبيعية مثل: الزلازل، الأمر الذي أدّى إلى انهيار الحياة الاجتماعية في بعض المدن الكبرى والتأثير على وتيرة نموّها، وانتشر الفقر في الأرياف، الأمر الذي أدّى إلى حدوث إنكماش ديمغرافي وتغيّر نمط الحياة، وقد سجّل الرحالة في تدويناتهم ما آلت إليه أهم الحواضر الكبرى ببلاد المغرب في تلك الفترة، مثل: القيروان، تارودانت، فاس، مراكش، تلمسان، بجاية، تونس، تاجوراء، طرابلس وغيرها من المدن.

ومع انضمام كل من الجزائر، تونس، طرابلس للدولة العثمانية وقيام أنظمة جديدة في المغرب الأقصى وهي الدولة السعدية ثم العلوية تحسنت معيشة الفرد وتكاثر السكان وتوسعت المدن واستحدثت مدن جديدة كما عرف الريف بداية العمران، وبظهور الجالية العثمانية بحكم الالحاق بالدولة العثمانية نتج عنها ظهور فئة جديدة تمت بزواج الأتراك بالنساء المحليات، هذه الفئة التي

عرفت بالكراغلة. كما كان لتوافد أعداد كبيرة من الأندلسيين خصوصا بعد الطرد النهائي سنة 1609م، دور هام في رفع النمو الديمغرافي ببلاد المغرب عامة، فعرفت العواصم الكبرى كثافة سكانية، كمدينة الجزائر ومدينة تونس، طرابلس، وفاس، مراكش وغيرها من الحواضر.

ومع منتصف القرن السابع عشر ميلادي، حدثت تغيرات كثيرة أسفرت على تناقص ديمغرافي للمنطقة كان سببها تراجع مداخيل الغزو البحري مما جعل السلطات ترفع من الضرائب على الأهالي، مما أضعف مستوى المعيشي للفرد، ومنه ظهرت حركة تمرد من الأهالي تمثلت في انتفاضات، كما أن الحملات وهجمات الأساطيل الأروبية على بلدان المغرب أضعفت إمكانيته المادية والبشرية، وظهرت مجاعات كثيرة في هذه الفترة، وتكاثرت الأوبئة خصوصا الطاعون الذي كانت وتيرته تزداد لعدم إلتزام السكان بالقواعد الصحية، حيث كان هذا المرض يجب أن يخضع للحجر الصارم وهذا ما كانت المؤنئ الأروبية تقوم به¹.

والجدول التالي يبين السنوات التي ظهرت فيها المجاعات والأوبئة في الجزائر وتونس وطرابلس².

الإيالة	الأوبئة	المجاعات
الجزائر	1661-1664م، 1669م، 1705م 1784-1787م، 1792-1799م 1817-1822م	1652-1657م، 1787م، 1794م 1800م-1807م 1816-1819م، 1822-1824م
تونس	1657-1663م، 1675-1680م 1688-1692م، 1696م 1701م-1706م، 1777-1779 1779، 1784-1785، 1816	1662، 1671-1678، 1700- 1703، 1803م-1805م

¹ سعدوني، المرجع السابق ص 47.

² المرجع نفسه، ص ص 48-49.

	1822م	
طرابلس	1691، 1675-1695، 1784-1785، 1826-1827	1781م، 1784م، 1786م.

كما عرف المغرب الأقصى هو أيضا المجاعات والأوبئة فمن سنة 1005هـ إلى 1016هـ وقع طاعون ، وانتشار بشكل كبير في المدن منها مراكش وتاروانت وغيرها¹

2 - التركيبة الاجتماعية لبلدان المغرب:

كان لتمرکز الفئات السابقة الذكر في حواضر بلاد المغرب وقيام النظام الجديد تأثير في التركيبة السكانية للمنطقة وبشكل خاص بالمدن، واعتمد التنضيد الاجتماعي على جملة من المعايير التي تم تصنيف بها الأفراد أو الجماعات في تربية اجتماعية متفاوتة، ويعتمد هذا الترتيب على عدة مقاييس؛ بحسب معيار الأصل، معيار المرجعية، النسب الشريف، والمعيار السياسي العسكري، والمعيار الاقتصادي، ومن خلال هذه المقاييس تولدت داخل كل حاضرة من حواضر بلاد المغرب ترتيب الفئات، فالإليات العثمانية الثلاثة عرفة سلما اجتماعيا مغاير على ما هو في حواضر المغرب الأقصى وهذا راجع لتواجد العنصر العثماني كطبقة حاكمة.

ولنبداً الحديث عن حواضر الإيالات الثلاثة فهل كانت لها نفس المعيار ومقياس ترتيب الفئات في المجتمع الحضري، فالتركيبة السكانية التي كانت بالمجتمع الجزائري اعتمدت على ترتيب مختلف نوعا ما مع ما كان بتونس وطرابلس فهناك نقاط تقارب ونقاط تختلف بحسب معايير التصنيف.

¹ عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 298-299.

أ- **الفئة العثمانية، والكرغلية** : تعتبر أهم الفئات حضوة في حواضر الإيالات الثلاثة، حيث أنهم احتلوا الصدارة في السلم الاجتماعي، وتشكل هذه الطبقة من الحكام ورجال الدولة والموظفين السامين والإداريين، والقضاة والمفتيين الحنفية والعسكر، ويعتبر مقياس السياسي والعسكري هو الأساس لتصدر هذه الطبقة هرم مجتمع المدينة في كل من تونس وطرابلس، إلا أنه في الجزائر عرف معيار الأصل داخل هذه الفئة أهمية بالغة، حيث لم يستطع العنصر الكرغولي منافسة آباؤهم في المكانة ولم يتجاوزهم في صدارة السلم، بينما استطاع هذا العنصر في كل من تونس، وطرابلس أن يخترق هذا الحاجز ويتفوق ويتصدر الهرم الاجتماعي بحكم تقليده لمقاليده الحكم¹.

ب - **الحضر أو البلدية**: أما فئة الحضر أو ما يطلق عليها البلدية فلم تختلف معيار القياس في ترتيبها في الإيالات الثلاثة فهي تخضع لتمييز لمعيار الأصل بدرجة الأولى فهي تضم السكان الأصليين بالمدينة أي ذوي الأصل العربي والأمازيغي الذي تواجد بالمدينة منذ أزمنة، كما تضم هذه الطبقة العنصر الأندلسي الذي لا يقل وجاهة عن الأصل العربي، كما تتضافر العوامل الدينية والتاريخية والاقتصادية أكسب العنصر الأندلسي شان في الحواضر بلاد المغرب، ويمكن القول أن هذه الطبقة تحتل المرتبة الثانية سواء في الجزائر أو تونس أو طرابلس وتشكل من فئة "الاشراف" التي لها الواجهة على المستوى الاجتماعي فهي تمثل النسب إلى آل البيت، ولها مكانة روحية واحترام لدى العامة والحكام، فكان يطلق على افراد الاسر التي تنتمي إلى هذه فئة بيت شرفاء وله المنزلية العلمية².

¹ - للمزيد حول هذه الطبقة في الإيالات الثلاثة. أنظر: أرزقي شويتام، مجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 926-1246/ 1519-1830م، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009م، ص 59-60؛ أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من وزارة شؤون الثقافة، 4 مجلدات، 8 أجزاء، مج4، ج7، د ط، الدار العربية للكتاب، د م ن، 1999م، ج3 ص54؛ ج7، ص 112، 13، 43؛ أحمد قاسم، إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوي ابن عثوم (1574-1600م)، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، أوت 2004، ص 189-192؛ إسماعيل كمالي، سكان طرابلس الغرب، تعريب وتعليق حسن الهادي بن يونس، الدار الوطنية للكتب طرابلس، 1997م، ص 60؛ تيسير بن موسى، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني دراسة تاريخية اجتماعية، دار العربية للكتاب، ليبيا، 1988م، ص 27.

² - يذكر ابن أبي الضياف قيمة الاسر الشريفة ومكانتها العلمية في عدة محطات. انظر: ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج 7، ص ص 28، 30، 37، 69؛ ج8، ص ص 22-56؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري 16-20م، ج1، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 238.

وأعيان والأسر العريقة، وأشخاص ذو المنزلة العلمية يتشكلون من فئة العلماء والقضاة والمدرسين والمشايخ¹.

ج- الطبقة العامة : فهي تتشكل من العامة وهي بدورها تنقسم إلى فئة البرانية أو الوافدة التي تصدر الصادرة في هذه الطبقة ، ويمثلون سكان الأرياف، والبوادي من اصل عربي أو امزيغي الذين انجذبوا الى استقرار بالحوضر بسبب الاستقرار والأمن النسبي الذي عرفته المدن، وتطور إمكانياتها الاقتصادية فتوجهة هذه الفئة بافع العمل أو التجارة، أو الدراسة أو في إتمام التزام ديني كالحج، وكانت جميع هذه الدوافع تدفع هؤلاء الأفراد إلى الإقامة لفترات طويلة، أو الإقامة النهائية بها².

د- الجاليات الاقليات اليهودية والأروبية: تتشكل من جماعات يهودية محلية وانضمت إليها جماعة أخرى قادمة من أوربا بحثا عن ملجأ من الاضطهاد الابيري، وجالية أخرى تواجدت سعيًا وراء أنشطة اقتصادية كاليهود لفورنا، وكل هؤلاء استقروا بشكل متفاوت بالحوضر الكبرى ببلاد المغرب، كان التسامح العثماني تجاه الأقليات، ومنحها استقلالاً في إدارة شؤونها الداخلية يفسر ازدهار الجماعات اليهودية في جميع هذه المدن، اما الفئة الأروبية فكانت من الاسرى وكانت أصولهم مختلفة³ وارتبطت تواجد هذه الفئة بعملية الغزو البحري⁴.

أما بالنسبة للمغرب الأقصى فقد اختلف معيار الترتيب الاجتماعي على ما هو في البلدان المغربية أخرى، وهذا راجع الى البعد السياسي- الاجتماعي المميز له حيث يعتبر مقياس المرجعية الشريفة الأساس أول في الترتيب، وعليه يحتل البلاط الملكي وأفراد الأسرة الحاكمة سواء في الفترة

¹ - حول طبقة الحضر. انظر: الإتحاف، ج3، ص 163؛ ج8 ص 43؛ أرزقي شويتام، فعاليات المجمع الجزائري، ص 55-56؛ أحمد قاسم، المرجع السابق، ص 194، 202-203؛ إسماعيل كمائي، سكان طرابلس الغرب، تعريب وتعليق حسن الهادي بن يونس، الدار الوطنية للكتب طرابلس، 1997، ص 58؛ تيسير بن موسى، المرجع السابق، ص 30.

² - أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، ط1، القاهرة، 1991م، ص 40.

²- يطلق عليهم اسم الاعلاج في الجزائر، واسم المماليك في تونس وكان من الاروبين من اصولجنوية، والبندقية ومنهم من قدم من الدولة العثمانية ومن الشركس والاكرد ويونان. انظر: الإتحاف، ج8، ص 26، 105، 121، 129، 133؛ أحمد قاسم، إيالة تونس، ص 193.

⁴ - شويتام، فعاليات المجمع الجزائري، ص 60؛ أندريه ريمون، المرجع السابق، ص 42.

السعدية أو العلوية قمة الهرم الاجتماعي، ثم تأتي طبقة كبار الموظفين السامين والقادة العسكريين في الترتيب الثاني فيما تحتل طبقة القضاة وفقهاء وأشياخ وذوي المنزلية العلمية الطبقة الثالثة في السلم الاجتماعي ولا تخضع هذه الأخيرة إلى معيار الأصل بل تخضع إلى المكانة العلمية التي وصل إليها صاحبها ثم تأتي طبقة التجار وهي أيضا لا تخضع لبعد العرقي فهي تخضع للبعد الاقتصادي، بعدهم في أسفل الهرم تكون طبقة عامة الناس والتي تشكل أرباب الحرف وطبقات الجند ونازحين من البوادي والأرياف¹.

3- الحياة الاقتصادية:

يعد الجانب الاقتصادي من بين أحد الدعائم الأساسية لقيام واستقرار واستمرار أي دولة، وكذا كان الأمر بالنسبة لبلدان المغرب خلال الفترة الحديثة، فقد اهتم الحكام في الإيالات العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس) والسلطين في المغرب الأقصى على تنمية الإنتاج الصناعي والحرفي وتطويره، ونشطت التجارة داخليا وخارجيا، وتمتع الإنتاج الفلاحي بالجودة والتنوعية.

أ - الصناعة والتجارة:

شهدت بلدان المغرب في الفترة الحديثة استقرارا أعاد للحياة الحضرية نشاطها، فكانت المدن الساحلية الكبرى المتوسطية وحتى الأطلسية منطلقا للغزو البحري، واشتهرت بذلك النشاط الذي أشرف عليه حكام المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس واستفادت المدن المغربية من نشاط الغزو البحري من حيث الغنائم والعائدات، وتوفرت مداخيل للفئات الحضرية، غير أن هذا النشاط لم يمنع قيام التبادل التجاري والذي نشطت فيه فئات المجتمع الأخرى، مثل: اليهود الذين لعبوا دور الوساطة بين الاقتصاد الحضري المغاربي والمدن الأوروبية خصوصا مع مطلع القرن الثامن عشر².

¹ - عبد الكريم كريمة، الدولة السعدية، ص 290.

² دلندة الأرقش، جمال بن طاهر عبد الحميد الأرقش، المغرب العربي الحديث من خلال مصادره مركز النشر الجامعي ميدياكوم، 2003م، ص 217.

كانت الصناعة الحرفية مرتكزة في المدن الكبرى لبلدان المغرب، كمدينة الجزائر، قسنطينة، تلمسان، بجاية، تونس، صفاقس، سوسة، تاجوراء، طرابلس، فاس، تطوان، سلا وغيرها من المدن، وكانت تعتمد الصناعة بها على المواد الأولية المتوفرة محليا، مثل: الصوف، الجلد، الخشب والمعادن، وهي تلبي الحاجيات الضرورية لسكان المدن والأرياف. وكان لتوافد العنصر الأندلسي واليهودي أثره الملموس في إدخال حرف جديدة وفتح ورشات صناعية متخصصة، كصناعة الحرير والكتان، الجواهر، العقاقير، العطور، الشواشي، المناديل، الأحزمة، الأحذية كانت حرفة متوارثة داخل العائلة الواحدة التي تبقى مشهورة بصناعة ما. من بين الصناعات التي كان يتولاها الأندلسيون، صناعة الأقمشة، والزرابي، والشاشية، والصباغة، وصناعة التطريز وتوشيح الثياب الحريرية بالذهب والفضة، وصناعة المجوهرات والحلي، التي اشتهر بها أيضا اليهود، وقلدهم في ذلك بعض الحضرة¹

وبهذا؛ أصبحت أسواق المدن الكبرى فيها تعدد الصنائع والبضائع المختلفة، وأضحت هذه المدن تتوفر على أسواق كبيرة تخضع لتنظيم محكم، فكانت لكل صناعة سوق باسمها في حي يعرف بإسم الصناعة التي يصنعها، مثل: حي الشواشي، أو حي البلاقجية، حي الجشاقماجية - أي صناع البنادق - حي النحاسين، وغيرها من الأحيان التي حملت أسماء الحرفة أو الصناعة المشتهرة بها. كما وضع لكل سوق أمناء الحرف يقومون على متابعة الأسعار وتنظيم السوق، فكان أمين البلاقجية وأمين النحاسين وهكذا².

¹ لتفاصيل أكثر حول الصناعات والنشاطات التي كان يتولاها الأندلسيون، انظر: ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 2003م، ص ص 52-55.

² عائشة غطاس، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830م)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، 2000-2001م، مطبوعة، ص ص 152-154؛ اتخذ أبناء العاصمة تونس الفنادق وأعطوها مفهوم الأسواق، في كثير من الحالات فقد أوردت وثيقة فندق الزبيب، وذكرت أنه أصبح = يعرف فندق الترك بسوق الزنايدية، وانتقل بعد ذلك إلى خارج باب البحر، وورد ذكر فنادق الفحم، والزيت، والعسل، والخضر، والرماد. أنظر: أحمد قاسم، «مدينة تونس في العهد العثماني من خلال الوثائق»، المجلة التاريخية العربية لدراسات العثمانية، ع 19، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكسة والتوثيق والمعلومات، زغوان- تونس، 1994م، ص ص 249؛ وعلى سبيل مثال سوق الربع، الذي انشأه عثمان باشا الساقلي في سنة (109-1083هـ/ 1649-1672م)، وسمى بالرباع لأنه تعلوه دور سكني التجار رباع، ومخصص لبيع الأردية الحريرية الموشاة بخيوط الذهب والفضة. انظر: الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، معجم البلدان الليبية، ط1، مكتبة النور، طرابلس، 1968م، ص 198؛ صلاح أحمد البهنسي، طرابلس الغرب دراسات في التراث المعماري والفني، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة- مصر، 2004م، ص 89.

ومن الصناعات التي تطورات بشكل ملحوظ ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر: صناعة السفن فعرفت ازدهارا لعدة عوامل، من توفر المادة الأولية، الأخشاب المحلية، ومع توافد العنصر العثماني والأندلسي ازدهرت صناعة السفن من حيث تطوير التقنيات الحربية والخبرات البشرية، حيث تكونت أجيال من البحارة المتخصصين في المجال البحري والحربي معا. إلا أنها ترجعت في القرن الثامن عشر نتيجة عدة أسباب تعود إلى الظرفية التاريخية وتقتضيات العصر، منها: الثورة الصناعية وما أحدثته من تطورات هامة على السفن¹.

ب- الزراعة:

عرف الإنتاج الزراعي إزدهارا ملحوظا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي ببلدان المغرب، ففي المغرب الأقصى عملت الأسرة السعدية على التطور العمراني في البادية المغربية، بفعل توزيع الأراضي على القبائل وإلزامها بزراعة الأرض وتطويرها، بشكل خاص معامل السكر ومصانعه. وهكذا ازدهرت الحياة بشكل عام في البوادي ومدن المغرب الأقصى ومنه ظهرت تجمعات بشرية ومراكز عمرانية في شكل قرى تجارية وزراعية وصناعية².

وفي الإيالات العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس) شهدت الزراعة تنوعا من حيث زراعة الأشجار وزادت وتيرة إنتاج محاصيل الحبوب وأصناف الخضر والبقول، كما ازدهرت طريقة تربية الموشى، ويرجع الارتفاع النسبي للإنتاج الزراعي إلى عدة أسباب، منها:

- خصوبة الأرض، خصوصا في المنطقة الساحلية الخصبة.
- الاستقرار السياسي وتخفيف الضرائب عن الأهالي.
- ازدياد النمو الديمغرافي.

كما يعود الفضل في تنوع المحاصيل إلى الجالية الأندلسية - خصوصا لما توافدت بعد الطرد النهائي سنة 1609م- التي أدخلت تقنيات جديدة في استصلاح الأراضي، وإنشاء الطرقات وأقامة العيون، كما أنها جلبت معها أنواعا جديدة من الخضر والفواكه والحبوب، مثل: الفلفل، الباذنجان،

¹ سعدوني، المرجع السابق، ص ص 35-36.

² سعيدوني، المرجع السابق، ص ص 28-29، عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 254-256.

الزعفران، الملفوف، القرمز وغيرها من أنواع الخضر والفواكه، وعملت على التوسيع من تربية دودة الحرير فتطورة وأصبحت مادة الحريرة متوفرة في أسواق المدن. لكن ما حل في القرن الثامن عشر وما جاء معه من انتشار الأوبئة والجفاف وتقلص مداخل البحيرة بفعل التضيق الذي عرفته من قبل الدول الأوروبية خلق مشاكل كبيرة، منها: تناقص السكان وزيادة فرض الضرائب على الأهالي لنقص المداخل.

ج- مداخل الدولة:

ارتبط نظام الجباية بالملكيات الزراعية وتحكم تطور النشاط الزراعي والحرفي والتجاري إلى حد كبير في طريقة استغلال الأرض، فقد خضعت الملكيات لفريضة العشور عن المحاصيل والزكاة على المواشي وبعض الملكيات المشاعة، فقد خصعت لعدة مطالب مالية اختلفت تسميتها باختلاف الجهات، مثل: الغرامة والمعونة والخطية والمجبي. وهي تؤخذ المحاصيل أو تدفع نقدا حسب الظروف.

وفيما يخص ملكية الأراضي، فإن العثمانيين لم يحدثوا فيها ما هو معروف في الشريعة الإسلامية، فكانت تنقسم إلى¹:

- أراضي القبيلة أو المشاعة: والتي تعرف بالعرش في الجزائر وأراضي عربي بتونس، يغلب عليها الطابع البدوي والتنظيم القبلي، إذ تستغل جماعيا حسب أفراد القبيلة، تحت مراقبة شيخ الدوار أو القبيلة أو العرش.
- أراضي الوقف: وهي المحبسة على مقاصد خيرية والموضوعة باعتبارها وقفا خيريا تحت إشراف الوكلاء والنظارة التابعين للمؤسسات الدينية التي تعود إليها الأراضي الموقوفة.
- الأراضي الخاصة الخاصة: وهي أراضي الملك المستغلة من طرف أصحابها بشكل مباشر، وعموما تكون صغيرة وتخضع لنظام الوراثة والبيع والشراء، تقع أغلبها في أطراف المدينة.
- أراضي الدولة: وهي أراضي المخزن أو البايليك التي وقعت حيازتها من طرف الحكام عن طريق الشراء أو وضع اليد في حالة الشغور أو عند المصادرة وإجلاء السكان المقيمين بها.

¹ | سعدوني، المرجع السابق ص ص 15-17.

وكانت هذه الأراضي تخضع لنظام ضريبي، إذ يؤخذ عليها كراء سنوي محدد، يعرف بالحكور، ويضاف عليها العشور ورسوم زهيدة، مما يلاحظ أن سياسة الحكام الجبائية انصبت أساسا على توسيع وتنويع المطالب المخزنية دون انتهاج أسلوب موحد كفيل بضمان مدخول قار ومحدد للخزينة.

كما كانت الدولة تفرض جباية ورسوما على أصحاب الدكاكين والنقابات المهنية والطوائف العرقية التي كانت تدفع مغارمها عن طريق أمنائها مثل مقدم اليهود، وبالإضافة إلى ذلك كانت مكوس الأسواق ورسوم المرسى التي تفرض على دخول السفن وحقوق الجمارك. وحتى تضمن الخزينة العامة مداخيل قارة، التجأ حكام الجزائر وتونس وطرابلس إلى نظام الاحتكار والالتزام وذلك بإسناد المناصب مقابل رسوم شهرية أو سنوية محددة، فعلى سبيل المثال: كان خوجة الجلد بالجزائر يقدم في شكل التزام سنوي قيمته 400 ريال بوجو مقابل الاحتفاظ بوظيفته¹.

أما فيما يخص ما كانت تحصل عليه الدولة من غنائم البحر وإتاوات القناصل وعمولات الوكلاء والتجار الأجانب وهدايا الممثلين والمبعوثين الأوروبيين، فقد كان هو الآخر مصدرا مهما باعتبارها ضريبة غير مباشرة تغطي نفقات الجهاز الإداري والعسكري بإيالات المغرب العثمانية، خصوصا في القرن السابع عشر، لكنها ما لبثت أن تناقصت مع مستهل القرن الثامن عشر بفعل ضعف بحرية ولايات المغرب العثمانية واستحواذ اليهود والتجار الأوروبيين على قسم مهم من مردودها عند إبرام صفقات شحنها بالموانئ الأروبية، وقد يناهز نصف قيمة الصفقات الإجمالية للغنائم. فضلا عن صرف جزء منها في مقايضة وعق الأسرى المسلمين، مع العلم بأن تضاؤل الغنائم يعود أيضا إلى التزام البحارة بعدم مهاجمة سفن الدول التي وقعت سلاما وتجارة مع بلدانهم، كل هذه العوامل أنقصت من مردود الغنائم في كل من الجزائر وتونس وطرابلس.

¹ سعدوني، المرجع السابق، ص ص 17-26.

المحور الحادي عشر: العلاقات المغاربية الثقافية

تمهيد:

اشتركت المجتمعات المغاربية فيما بينها في مجموعة من الموروثات الثقافية والدينية والاجتماعية والحضارية التي توارثتها منذ عصور موعلة في القدم، وما ميّز هذا المجتمع هو تشابكه وتقاسمه للكثير من العناصر المشتركة التي كانت مجالا للتواصل، أخذا وعطاء، تأثرا وتأثيرا. وقد كان علماء بلاد المغرب المحرك الأساسي للعلاقات الثقافية والمعرفية من خلال تفاعلهم مع المعارف العلمية بالكتابة فيها أو بتدريسها، كما كانت حركة انتقالهم حاملين معهم مؤلفاتهم وأفكارهم وأساليبهم العلمية والتعليمية، وقد قدمت هذه العناصر دلالات على أن العلاقات الثقافية بالمنطقة المدروسة ظلت قائمة ومستمرة في حواضر بلاد المغرب.

1- عوامل التواصل الثقافي بين بلدان المغرب:

من أهم العوامل التي جعلت العلاقات الثقافية تعرف ذلك الترابط والتبادل المستمر: وحدة الجغرافية التي انبثق منها طرق ومسالك متصلة ببعضها، كما كانت الرحلة بأنواعها سواء الرحلة الحجّية أو الرحلة بدافع الطلب العلم والتدريس أو الرحلة فرضتها الظروف سواء للزيارة أو للاستقرار عامل مهما من عوامل الترابط الثقافي بين بلدان المغرب، وقد عُرف العرب تحديدا بحبهم للرحلة والهجرة منذ الجاهلية، فتنوعت وتشعبت الأغراض التي دفعتهم لشد الرحال، فمنها الاقتصادية والسياسية والسياحية والدينية والثقافية، واستمر حبهم للرحلة في صدر الإسلام، فظهرت عوامل أخرى كدافع الجهاد وتأمين حدود الدولة الإسلامية، أو ما كان يُعرف حينها "بدار الإسلام"¹، وقد شجع الإسلام على السفر والرحلة لأغراض عدة، منها: طلب العلم، والحج، العمل، والتي تدخل ضمن الرحلة والهجرة الطوعية. كما أنّ هناك هجرة إجبارية تفرضها الظروف الاقتصادية والسياسية والأمنية، ولم تختلف دوافع الهجرة ببلاد المغرب خلال الفترة الحديثة سواء كانت إجبارية أو اختيارية.

وعلى الرغم من اختلاف أنواع الرحلة؛ إلا أنّه كان لكل نوع منها دوره في التواصل الثقافي، وأوّل أنواعها: الهجرة الإجبارية أو الاضطرابية: في ظل التطورات السياسية التي عرفها القرن العاشر

¹ -Touati Houari, **Islam et voyage au Moyen Age** , édition du SEUIL, PARIS, 2000, p: 11-12.

الهجري، السادس عشر الميلادي، والتي أدت إلى تغيير الخريطة الجيوسياسية في غرب البحر المتوسط عقب انهيار البيت الزياني والحفصي على يد العثمانيين، ونهاية الحكم الوطاسي على يد السعديين - كما سبقت دراسته في المحاور السالفة - أدت إلى هجرة أعداد من العلماء بين أقطار بلدان المغرب، فقد هاجر عدد معتبر من علماء الغرب الجزائري ولا سيما العائلات العلمية بتلمسان منذ بداية ضعف السلطة الزيانية في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وزادت وتيرة الهجرة بعد نهاية الحكم الزياني إلى المغرب الأقصى¹، وفي الاتجاه المعاكس، فور دخول محمد الشيخ إلى فاس وقضائه على الدولة الوطاسية، وعزمه على الانتقام من الموالين لها، فرَّ عدد من علماء وشيوخ فاس ومكناس إلى الجزائر². كما عرف علماء تونس وطرابلس في نفس الفترة نفس المصير؛ فقد أدَّى الضعف الحفصي وعدم قدرتهم على التصدي للضغط العثماني، وتواطئهم مع الإسبان؛ بالعلماء إلى الترحال قاصدين الجزائر أو المغرب الأقصى.

وثاني أنواع الرحلة هي **الرحلة الحجية**: فقد شكَّل الحج إلى بيت الله الحرام بالنسبة لمسلمي بلاد المغرب مطلباً قوياً للإلحاح، مما زاد رغبتهم في الرحلة، ولم يقتصر العلماء على أداء الفريضة؛ بل تجاوزوها إلى تحصيل العلوم الدينية النافعة، بالدرس على أجلة الفقهاء في العواصم التي يمرون بها خلال رحلاتهم، ولهذا كان بعضهم يسافر قبل موسم الحج بزمان كاف ليجد من الوقت ما يُحصِّل فيه زاده من المعرفة، فكان من أثر ذلك أن ألفوا كتباً كثيرة في وصف الرحلات إلى البيت العتيق، منهم من أدمجها في كتب المسالك، ومنهم من أفردها بكتب مستقلة، وقد وردت على شكلين، فمنها من دوَّنها نثراً، ومنهم من نظمها شعراً³.

¹ - كثرت الحروب الداخلية في أخريات أيام المملكة الزيانية وتعرضها لضغط بني وطاس عليها من الغرب والعثمانيين من الشرق، ودخولها في علاقة بالإسبان في وهران جعل العلماء لا يشعرون بالراحة، واتخذوا الحياد السياسي، فما كان من العديد منهم إلا أن حمل أمتعتهم وأهله وترك البلاد. أنظر: أبو القاسم سعد الله **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج1، ط6، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي - الجزائر، 2009م، ج1، ص423؛ بن خروف، المرجع السابق، ج2، ص ص 111 - 112.

² - بن خروف، المرجع السابق، ص ص 111 - 112؛ أرزقي شويتام، «العلاقات الثقافية الجزائرية المغربية (الفترة العثمانية)»، **مجلة الدراسات التاريخية**، ع13، جامعة الجزائر2، 1433هـ/2011م، ص ص 79 - 108.

³ - حول أهم ما كتب عن الحج والرحلات الحجازية. انظر: عبد العزيز بن راشد السنيدي، **معجم ما ألف عن الحج تاريخه - مناسكه - تنظمه - طرقه - الرحلات إليه**، دط، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1423هـ/2001م؛ ليلي غويني، مقالة: "ماهية

وتعتبر الرحلة لغرض الحج من أهم العناصر المحركة للنشاط الثقافي ببلاد المغرب، والتي تمت فيها عملية الاحتكاك والتواصل العلمي، حيث تعتبر قافلة الحج المغاربي مدينة صغيرة متنقلة، لها دستور لها الخاص، وقوانينها العامة السارية على جميع أفرادها، وقد تحدّث الرحالة المغاربة عن السير العام للقافلة المتنقلة التي تستغرق شهورا حتى تصل إلى الغاية المقدسة بسلام، وأهم من النظام الرسمي السالف الذكر، هناك النظام الروحي المتمثل في التعاون على مشاق السفر والاحترام وتطبيق آداب السفر، لأنها رحلة دينية.

وأهم ما يميز هذه الرحلة: المسار الجغرافي الذي يشمل عددا كبيرا من المدن والبادي وهو ما يتيح اتساع عنصر التواصل والتلاقح والمبادلات العلمية، وعليه؛ سيتم التطرق إلى الطريق البري للركب المغاربي في الفترة المدروسة حتى يتم إبراز المدن التي كانت مجالا للتواصل.

يشكل الطريق البري عبر العصور المسلك المفضل لدى المسافرين من التجار والحجيج وطلبة العلم، وينقسم إلى ثلاثة مسالك، لتتفرع من كل مسلك طرق ثانوية. وهي كما يلي:

❖ **المسلك الأول:** تكون نقطة انطلاقه من إقليم درعة عند الأطلس (المغرب الأقصى)، ويمتد جنوبا على مسافة نحو مائتين وخمسين ميلا عبر صحراء طرابلس¹ بفزان. ومنها إلى مصر، والمسافة بينهما قرابة مسيرة ستين يوما².

❖ **المسلك الثاني:** هو الطريق الذي يحاذي الساحل المغربي، ويعرف بالطريق الساحلي. وتكون محطاته عبر المدن الساحلية انطلاقا من المحيط الأطلسي متجها شرقا نحو الحجاز، مارا بفاس، وخطه كما يلي: فاس، وجدة، تلمسان، مستغانم، تنس، الجزائر، صفاقس، ثم يواصل إلى طرابلس ومنها يتجه شرقا مارا بالمدن الساحلية: تاجوراء، وادي الرمل، لبدة، تراغن، وزليتن، مصراته، مسلاته، فقصور حسان إلى سلوق. ثم ينعرج جنوبا عبر منطقة السروال التي تمتد إلى الجنوب من الجبل

أدب الرحلة عند العرب والمسلمين-الرحلة الحجازية أممؤذجا- " مجلة المغاربة للمخطوطات عدد11 ، السنة 2011، مجلة سنوية محكمة يصدرها مخبر المخطوطات ، جامعة الجزائر -2- أبوقاسم سعد الله.

¹ - حسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف افريقيا، تحقيق محمد حجي، جزاءن، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1983م، ص 118.

² - المصدر نفسه، ص ص 146-147.

الأخضر، حيث يمر ببعض المناطق الداخلية مثل الخروبة، ويعود باتجاه الساحل في منطقة عين الغزالة، ثم القصر إلى العقبة، ومنها إلى الإسكندرية¹.

❖ **المسلك الثالث:** هو الطريق العرضاني الأوسط أو الخط الوسطي، الذي يمر جنوب ووسط الجزائر وتونس، ينطلق هذا الخط من إقليم سجلماسة متجها إلى بسكرة، ثم يمر بسيدي عقبة، وسيدي ناجي ليصل إلى الجنوب التونسي مارا بالحامة، قابس، توزر، عرام. ثم يواصل عبر ساحل طرابلس شرقا. فيمر على المحطات التالية: برج الملح، الزوارة، الخالية، العامرة، زواغة، وزنور، طرابلس، المنشية، تاجوراء، وادي المسيد، ساحل حامد، مسلاتة زليتين، مصراته، تورغة، العوينات، بئر حسان، مطراو، الزعفران، معطن الأحمر، سرت النعيم، العقيلة، اليهودية، أجدايبة، سلوك، بن غازي، التميمي، عين غزالة، مقرب طرفاوي، جرجوب، الشمامة، المدار، العقبة، ومنها يدخل إلى الأراضي المصرية².

أما في طريق العودة، فبعد اجتياز القاهرة والمرور بالإسكندرية، يتم الدخول إلى الأراضي الطرابلسية وصولا إلى تونس بمنطقة الكاف فيكون طريق الهضاب الشمالي الرابط بين القيروان وسطيف. وقد ظل هذا المعبر محافظا على أهميته، إذ تعبره القوافل التجارية ويسلكه المسافرون والحجاج. وقد ذكره أغلب الجغرافيين والرحالة العرب، وعدّدوا محطاته كآلاتي: القيروان، جلول، أجر، الأريس، تامديت، تيفاش، تيجس نمروان، مهريين، تامسنت، دكمة، أوسيجت، المسيلة³. كما أنهم حددوا المسافة بين القيروان وسطيف بحوالي ست عشرة مرحلة، ومثلها بين سطيف وتاهرت⁴.

وهناك عدة طرق ثانوية أهمها المسالك الرابطة بين الجنوب والشمال، منها: طريق السفوح الجنوبية المتاخمة للزيان، ومسلكان أحدهما شرقي يصل باغاية ببادس والآخر غربي يربط نقاوس

¹ - علي مفتاح إبراهيم منصور، تاريخ ليبيا الثقافي والديني والاجتماعي من خلال الرحالين العرب والأوروبيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر 1700-1900م، ج1، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2006-2007م، ص 37.

² - على سبيل المثال فقد اختار الورثياني في ذهابه إلى الحجاز هذا المسلك مقتديا بالرحالة السابقين أمثال: العياشي والدرعي.. انظر: الورثياني، الحسين بن محمد، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثيانية، مطبعة بيزر فونتانا، الجزائر، 1326هـ/1908م، ص ص، 82-86، 117-122، 130 وما بعدها.

³ نفسه، ص ص 655-703.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص 391.

ببسكرة ويضاف إلى هذه المسالك طرق فرعية كثيرة يصعب التطرق إليها كلها¹. ومنه فقد كان ركب الحج المغاربي يجوب مراكز عديدة وكثيرة، وأخذت الثقافة جانبا مهما من نشاط العلماء وهم في رحلتهم من خلال احتكاكهم بأقرانهم.

وكانت الرحلة العلمية هي ثالث الأنواع، ويكون دافعها الحاجة الذاتية بغرض الاستزادة من العلم والتعلم ولقاء العلماء، والاطلاع على الكتب والمكتبات من مختلف المراكز العلمية، وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة، تبين أهمية طلب العلم والهجرة لأجله²، وتعددت الأحاديث الدالة على العلم والحث عليه متممة لما جاء في القرآن الكريم، منها قوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»³، وعليه أقدم المسلمون على هذا النوع من الرحلة، وشدو الرحال إلى المساجد والمدارس المنتشرة في الأقطار الإسلامية، ولما كان الدافع الديني محفزا لطلب العلم؛ فإن الفضاء المغاربي عرف حركة دائمة بين أهل العلم سواء من أجل استكمال الدراسة أو العمل في المجال العلمي كالتدريس والفتوى، والقضاء أو استفادة العلماء من بعضهم البعض بحكم التقارب الجغرافي. وقد تجسدت أمثلة كثيرة عن انتقال علماء وطلبة العلم المغاربة بين مراكز العلم بتونس والجزائر والمغرب الأقصى وطرابلس. وهي تدل على التواصل الدائم والمستمر، مما ساهم في إرساء قواعد ثقافة مشتركة.

ومن بين أنواع الرحلات: الرحلة الزيارية، فيكون غرضها التبرك وزيارة كبار مشايخ الصوفية، وأضرحة الأولياء والزوايا والأماكن المقدسة المعروفة، والتي تكون موضع افتخار لصاحبها. وعرفت الفترة الحديثة هذا النوع من الرحلات، رحلة العياشي والدرعي والورثيلايني وغيرهم من الرحالة. والرحلة الاستطلاعية، ويقوم بها صاحبها قصد التجوال والمغامرة للتعرف على الأماكن المجهولة، ويقدم وصفا للمسالك، وأسماء البلدان والقرى والقبائل والمناخ ويتحدث عما شاهده من

¹ - سعيدوني، ورقات، ص 391، وما بعدها.

² - أول آية نزلت من كتاب الله تعالى هي: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (سورة العلق، الآية 1) ويقول عز وجل: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة الجاثية، الآية 13)، كما وردت آيات تحث على الاستزادة من العلم في قوله تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (سورة طه، الآية 114).

³ - حديث حسن. انظر: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سؤرة الترمذي، الجامع الكبير المعروف بسنن الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، 6 أجزاء، ج 4، د ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1998م، كتاب العلم، باب فضل طلب العلم، رقم الحديث 2646، ص 325.

أخبار البلدان، السياسية والاجتماعية والثقافية. وقد عرف المسلم بحبه لهذا النوع من الرحلة، وبشكل خاص مسلمي بلاد المغرب الذين أسهبوا في الكتابة عن رحلاتهم، وأفضل مثال عن هذا النوع: رحلة ابن حوقل ورحلة ابن جبير والمسعودي والإدريسي وابن بطوطة والورثيلائي ورحلة حسن الوزان. أمّا الرحلة السفارية، فهي التي يكون دافعها دبلوماسي - سياسي، ويكون صاحبها مبعوثا رسميا (سفيرا)، فيركّز على تدوين أخبار الحكام والسلطين وسياسة البلدان.¹

2- ملامح الاحتكاك الثقافي بين العلماء المغاربة:

كان التعليم والتأليف ميدانا فسيحا لتبادل الخبرات والمعارف بين لعلماء المغاربة، فلم تأثر السياسة وما يتخللها من اضطرابات ومشاكل ومناوشات في العلاقة بين علماء الجزائر أو علماء تونس أو علماء طرابلس أو علماء المغرب الأقصى، فكان الطلبة ينتهلون العلم من أكابر العلماء والفقهاء والأدباء ببلاد المغرب بغض النظر عن انتساب العالم، ويتنافسون على مجالستهم وأخذ مختلف العلوم والمعارف عنهم، فكان هذا ملمحا من ملامح الاحتكاك الثقافي، بالإضافة إلى الاشتراك في المناهج التعليمية والاهتمام بمؤلفات بعضهم البعض شرحا واختصارا وتذييلا.

أ- المجال التعليمي:

كانت المؤسسات التعليمية تفتح أبوابها لاستقبال العلماء من مختلف بلاد المغرب لتقديم الدروس، وهذا دليل على تكامل المجتمع المغربي في هذه الفترة. وفي هذا صدد تم اختيار مجموعة من الأمثلة للعلماء والمدرسين الذين اضطرتهم الظروف إلى الهجرة من بلدهم الأصلي إمّا قهرا أو رغبة منهم في الهجرة، أو الذين مارسوا مهنة التدريس أثناء مرورهم على إحدى البلدان الأخرى في رحلتهم العلمية أو الحجازية، فتتلمذ على أيديهم كوكبة من الطلبة أو العلماء وكانوا يمثلون الحراك الحاصل في ميدان التعليم.

¹ - للمزيد حول أنواع الرحلات. انظر: مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة أحمد زبانة، الجزائر، 1981م، ص 10 - 12؛ سميرة انساعدي، أدب الرحلات الحجازية النثرية في الجزائر من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجري (القرن 17-19م)، مذكرة ماجستير، 2000-2001م، ص 5؛ ليلى غويني، "الرحلات الحجازية الجزائرية النثرية في العهد العثماني" مجلة الدراسات التاريخية العدد 10 السنة 2009، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2.

- **سعيد قدورة (ت1066هـ / 1655م):** هو سعيد بن إبراهيم بن عبد الرحمن قدورة، مختلف حول مكان مولده بين مدينة الجزائر، أو منطقة قدورة القريبة من جزيرة جربة بتونس، تلقى تعليمه الأول على يد نخبة من الشيوخ، وبعد ذلك تآقت نفسه للسفر، فقصد زاوية الشيخ محمد وأخيه أبي علي بن آهلول الواقعة قرب تنس سنة 1004هـ / 1595م، أو السنة التي بعدها، فبقي هناك يدرس على الشيخين ثم سافر سنة 1012هـ / 1603م إلى تلمسان، فتتلمذ على الشيخ سعيد المقرئ، وبعد ذلك سافر إلى المغرب الأقصى وأخذ العلوم عن أهل صحراء فجيج وتافاللت وسجلماسة، ولا ريب أنه زار فاس، ليعود ويستقر بمدينة الجزائر سنة 1019هـ / 1610م، كان سعيد قدورة من أكابر علماء مدينة الجزائر، تصدر للتدريس بالجامع الكبير فكان اشتهاره بالتدريس أكثر من اشتهاره بالتأليف، فتخرج على يديه وأجاز عددا من الطلاب المغاربة والجزائريين، منهم: عيسى الثعالبي ومحمد بن عبد الكريم الجزائري ويحيى الشاوي الملياني وعمر المانجلاتي ومحمد بن أحمد الشريف الجزائري، وغيرهم من التلامذة¹.

- **علي الأنصاري السجلماسي (ت1057هـ / 1646م):** هو أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن محمد بن سراج، الأنصاري السجلماسي أو الفيلاي، من سلالة الصحابي سعد بن عبادة الخزرجي، ولد بتافاللت ونشأ بسجلماسة وهو من علماء المغرب الأقصى الذين استوطنوا الجزائر، وشاركوا في الحياة العلمية بها، خاصة التدريس، وكان مجيئه فرصة لطلبة مدينة الجزائر للأخذ من عالم من علماء القرويين بوزن الأنصاري، وكان هذا العالم قد فر مع أسرته من بلده قاصدا مدينة الجزائر جراء الفتن التي عرفتھا الدولة السعدية في آخر عهدها، ويرجح الباحث أبو القاسم سعد الله أن دخوله إليها كانت ما بين (1045 - 1047هـ / 1635 - 1637م). ومن هذه الفترة بدأ الأنصاري يلقي دروسه فيها².

- **الجامعي:** هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الجامعي الفاسي، ينتسب إلى أسرة أولاد جامع الكائنة في شمالي فاس، فقيه، أديب، شاعر، ومؤرخ، ولد سنة 1087هـ / 1676م، تلقى تعليمه الأول

¹ - محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفرائي، صَفْوَةٌ من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، ط1، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء- المغرب، 1425هـ / 2004م، ص 220؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص ص 357- 361، 368-369.

² - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص ص 370- 375.

في بلده فاس على أبرز علمائها، وارتحل إلى تلمسان سنة 1119هـ / 1707م، ثم إلى مدينة الجزائر سنة 1122هـ / 1710م، وبعدها إلى قسنطينة وأخذ عن علمائها، وعلى رأسهم الشيخ أحمد البوني، ومنها قصد تونس سنة 1126هـ / 1713م واستقر بها وتصدر للتدريس بجامع الزيتونة، كان حيا إلى سنة 1137هـ / 1725م¹.

– **السكتاني:** هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن أحمد بن علي بن سعيد بن أحمد السوسي، السكتاني، المسكاتي، التونسي، يعد أحد علماء المغرب الأقصى الذين استقروا بتونس، أخذ بها وتحديدا بجزيرة على الشيخ علي بن إبراهيم بن عبد الله الجمني بالزاوية الجمينية، وقرأ بجامع الزيتونة، ثم ارتحل من تونس إلى مصر، ثم دخل الحجاز فأدى فريضة الحج وقرأ بالجامع الأزهر بمصر، وبعدها عاد إلى تونس فاستقر بجزيرة جربة وتولى التدريس بمدرستها، ومنها انتقل إلى القيروان واشتغل بالتدريس، فكان قبلة لطلبة العلم يقصدونه من مختلف أنحاء تونس، ثم اتجه إلى مدينة تونس وتولى مشيخة المدرسة العاشورية، فنهل من علمه طلاب منهم الحسين الورثياني الجزائري، والشيخ مقديش، وبقي بمدينة تونس إلى أن وافته المنية سنة 1169هـ / 1755م².

– **ابن أبي العيش:** هو أبو العباس أحمد بن أبي العيش العيسي، من فقهاء تونس، من الأعلام الفضلاء، أخذ العلم في بلده، ثم نفاه السلطان إلى طرابلس، وأصبح شيخ الجماعة بتاجوراء القريبة من طرابلس، توفي بتاجوراء سنة 970هـ / 1562م³.

– **عبد الواحد الونشريسي:** هو أبو محمد وأبو مالك عبد الواحد بن أحمد بن يحيى بن علي الونشريسي، والمعروف أيضا بابن الونشريسي وابن الشيخ، نسبة لأبيه أحمد الونشريسي، أصله من تلمسان، ولد بفاس بعد سنة 880هـ / 1475م، أخذ عن أبيه وابن غازي وغيرهما من علماء المغرب الأقصى، كان أبوه أحمد مدرسا بمساجدها وبمدارسها، متوليا لأحد الكراسي بجامع القرويين وعند

¹– عبد الهادي التازي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، ج3، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، 1973م، ص 800.

²– خوجة، حسن، ذيل البشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق الطاهر المعمرى، الدار العربية للنشر، ليبيا، تونس، 1975م، ص 119.

³– ابن القاضي، ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الرجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحدي أبو النور، ج1، دط، دار التراث، المكتبة العتيقة، القاهرة، تونس، د.ت.، ص 154.

وفاة أبيه خلفه ابنه عبد الواحد في التدريس على الكرسي الذي حمل اسمه فيما بعد، وهو يقع على يمين الداخل من الباب الواقع بأعلى زاوية ابن بكار (باب الصالحين الشرقية)، فتولى تدريس صحيح البخاري مع شرحه المسمى "فتح الباري"، لابن حجر العسقلاني، اعتماداً على النسخة التي كتبها الحافظ التنسي بخط يده، هذا وقد تولى عبد الواحد الونشريسي أيضاً التدريس بمسجد العقبة الزرقاء، وفي المدرسة المصباحية تولى تدريس المدونة، وقد تميز بخطه الجميل، وكان يكتب للشيخ أبي عبد الله بن غازي تحييساته في ظهر تأليفه، واعترف له بقدرته العلمية لما جلس على كرسي أبيه، أخذ عنه أبو راشد يعقوب بن يحيى اليدري وأبو زيد السلواني وأبو زكريا السراج. وبالإضافة إلى التدريس؛ تولى المترجم له القضاء مدة ثمانية عشر سنة والفتيا، كان عبد الواحد ابن الونشريسي رقيق الطبع، صلباً في الدين، لا يخاف في الله لومة لائم، ومن ذلك أنه رفض خلع بيعته لأبي العباس الوطاسي لصالح السعديين عند دخولهم لفاس فقتل لذلك سنة 955هـ / 1549م، وعمره نحو سبعين سنة¹.

- **ابن حمدان التلمساني:** هو أحمد بن حمدان بن محمد بن علي بن سالم التلمساني الدلائي، أصله من تلمسان، استوطن المغرب الأقصى فتعلم على يدي علمائها، منهم: الشيخ عبد القادر الفاسي والشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن أبي القاسم بن القاضي بن أبي العافية المكناسي الفاسي بفاس، والشيخ محمد بن سعيد المرغيتي وغيره بمراكش، ثم أدى فريضة الحج واستغل الفرصة لطلب العلم في مصر والحجاز، فلقي عدداً من العلماء ونال إجازاتهم، وبعد عودته إلى فاس تصدر لإقراء السيرة النبوية والحديث وعلومه بالجامع المنسوب لسيد علي ابن حرزهم، كما تولى خطابة المسجد الأعظم بفاس في عهد السلطان إسماعيل، قتل مطعوناً سنة 1092هـ / 1680م².

- **محمد التواتي:** هو أبو عبد الله محمد بن مزيان التواتي، أصله من المغرب الأقصى وانتقل إلى بلاد زواوة، وأخذ عن علمائها ثم انتقل إلى منطقة نقاوس ودرس بها، ولما زار قسنطينة اشتهر أمره وقصده الطلبة للانتفاع به وتحصيل ما عنده من معارف، كما أنه توجه إلى باجة بالإيالة التونسية، من

¹ - السلاوي، الاستقصا، ج4، ص 158؛ ج5، ص 22؛ عبد الهادي التازي، كتاب جامع القرويين، ص ص 379-380.

² - القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي، أحمد التوفيق، ج2، د ط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط- المملكة المغربية، 1397هـ / 1977م، ص 301.

أبرز طلابه ابن الفكون صاحب كتاب "منشور الهداية"، توفي التواتي وهو بإيالة تونس بالطاعون سنة 1031هـ / 1621م¹.

- **المقري:** هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقري، التلمساني، الفاسي، ولد عام 986هـ / 1578م بتلمسان، حيث استقرت أسرته الأولى بعد أن انتقلت من بلدة مقرة². يُعدّ المقري من أهم الشخصيات العلمية التي احتلت مكانة رائدة في بلاد المغرب خلال القرن الحادي عشر هجري، السابع عشر ميلادي، وشهد له معاصروه بالإمامة والفضل في الفقه وأصوله وفي علم القرآن والحديث وعلوم اللغة³.

نشأ المقري بتلمسان، أين حفظ القرآن الكريم، وعكف على دراسة علوم العربية والحديث. كان أول معلم له عمه الشيخ أبو عثمان سعيد المقري، عُرف بكثرة رحلاته، فتوجه إلى مدينة فاس سنة 1009هـ / 1600م، ومثّن صلته بالشيوخ والعلماء الذين خالطهم وحضر مجالسهم وانتفع من علمهم، زار مراكش وهناك تعرف على العالم المشهور أحمد بابا التنبكتي، وعلى عدد لا بأس به من علماء مراكش. ثم راوده الحنين ليزور مسقط رأسه تلمسان فكان ذلك سنة 1011هـ / 1602م، ومنها عاد إلى فاس واستقر بها فترة طويلة دامت حوالي خمس عشرة سنة، استكمل فيها حاجته العلمية وتولى فيها الإمامة والفتوى والخطابة، ووظائف دينية متعددة في جامعها "جامع القرويين"، فعلا شأنه وذاع صيته في كل المغرب، ومدحه عدد كبير من علمائه، ولأسباب سياسية تمثلت في الفتنة بالبيت السعدي في هذه المرحلة؛ خرج المقري من المغرب الأقصى متجها إلى مصر، ومنها بدأ

¹ - الفكون، منشور الهداية، ص ص 57-59.

² - مقرة: بقاف مسكنة وراء مفتوحة مدينة في المغرب في البر البربر قريبة من قلعة بني حماد بينها وبين طبة ثمانية فراسخ، ويذكر المقري: "هي مقرة من قرب الزاب إفريقيا". ومقرة هي اليوم إحدى بلديات ولاية المسيلة بالجزائر. انظر: المقري، **نفع الطيب**، ج5، ص 280.

³ - سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي "تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين"، جزء واحد، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1999م، ص 327.

تجواله في الحجاز والمشرق، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى في جمادى الثاني سنة 1041هـ/1631م، ودفن في مقبرة المجاورين بالقرب من جامع الأزهر¹.

ب- المناقشات والمراسلات والحوارات المتبادلة بين العلماء المغاربة:

أظهرت الحوارات والمناقشات بين العلماء جوانب عديدة من القضايا الدينية والاجتماعية التي ساهمت في إيضاح مميزات التواصل الثقافي بين بلدان المغرب، فإلى جانب الحلقات المنعقدة من أجل الدراسة، كانت هناك جملة من المجالس أين جرى فيها النقاش حول قضايا الأمة والقضايا العلمية، وتعد المراسلات بين العلماء حجر الزاوية في دفع العلاقات العلمية والفكرية وتوسيع رقعتها وتعميقها، وتتنوع الرسائل بحسب الغرض المقصود من كتابتها، فمن خلال ما ورد في كتب المصدرة يمكن تقسيم المراسلات إلى أربعة أنواع:

(1) **المراسلات لغرض التقريظ:** يعتبر التقريظ من أهم الصور التي تعبر عن التواصل الفعلي بين أهل العلم، بحيث يعبر المقرّظ عن اهتمامه بأعمال غيره من العلماء ويلعب هذا الأمر دورا هاما في التعريف بأعمال المقرّظ له، وعلى سبيل المثال لا الحصر كانت أعمال المقرّي تجد استحسانا كبيرا من العلماء، لنبوغه في الكتابة وانفراده بكثرة التأليف، وقد لقي كتاب "أزهار الرياض" صدا كبيرا في أوساط العلماء الذين استحسنوا هذا العمل كالعالم المنكلاقي²، الذي ألف تقريظا مميّزا في قصيدة طويلة كانت الأبيات الخمسة عشر³ الأولى منها تشيد بمؤلف "أزهار الرياض"، بينما جاءت الأبيات الاثنتي عشر⁴ الأخيرة لمدح المقرّي في تصنيفه "للأزهار" إلى "روضات".

¹ - عن المقرّي. انظر: محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتّاني، **وقفات في حياة الحافظ أحمد بن محمد المقرّي**، تحقيق عبد القادر سعود، ط1، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط- المملكة المغربية، 1438هـ/ 2017م، ص 31، ومما بعدها؛ سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي، ص 327-329.

² هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الفاسي، الشهير بالملكلاقي، كاتب الخلافة السعدية الحسنية الشريفة بالمغرب، والمعروف بالبلاغة في الأدب، له تأليف عديدة منها: "تذيل على نظم الوفيات لابن القشتالي" و"شرح مقصورة الإمام المكودي" يرجح أن تكون وفاته سنة (1041هـ/1639م). انظر: محمد القادري، **نشر المثاني**، ص 160.

³ - ليلي غويني، **التفاعل الثقافي بين الرحالة الجزائريين وعلماء المغرب العربي خلال العهد العثماني**، شركة الاصاله والنشر، الجزائر 2016، ص 232

⁴ نفسه .

(2) مراسلات لغرض علمي: هي تلك الرسائل المتبادلة بين العلماء المغاربة والتي تهدف إلى التعاون العلمي، على سبيل المثال المراسلة التي تبرز مدى تواصل العلماء المغاربة فيما بينهم وهم بالمشرق، حيث بعث أبو بكر السوسي¹ مكتوبا للمقري يحمل بعض الأسئلة الفقهية، كحكم تارك الصلاة وآداب الصلاة ومناسك الحج وقد اختار صاحبه الخطاب الشعري الذي كان منتشرا ومستعملا كثيرا وقتئذ².

(3) مراسلات لغرض التلغيز: فيما يخص المراسلات لغرض التلغيز، فهذا اللون الأدبي المعروف في ذلك الوقت بين أهل العلم يعتبر أسلوب ترفيه وكذلك صورة من صور الاجتهاد الفكري والأدبي لإبراز الذكاء والحنكة. فثمة نموذجان فقط في الرحلة، الأول كان من العالم ابن الناصر الفاسي الذي استطاع حل "ملغز الكتاب"³ للمقري بمقطوعة نظم في ثمانية أبيات، نستخرج منها إجابته على اللغز:

إِنَّ الرُّبَاعِيَّ الَّذِي كُنْتُ قَدْ أَلْغَزْتُ فِيهِ ظَاهِرٌ مِنَ الْكِتَابِ
وَلَسْتُ بِالتَّعْرِيفِ يَوْمًا لَهُ مُبِينًا خَوْفَ حُقُوقِ الْعِتَابِ⁴

(4) مراسلات عامة: نغني بالمراسلات العامة الرسائل الإخوانية المتبادلة بين العلماء بقصد التهئة أو التوديع أو للمجاملة، ومع أن هذه المراسلات تعتبر شخصية، إلا أنها تعبير صادق للتواصل الفعلي والعفوي، كما أنها تحمل تفاصيل هامة ليس فقط حول العلاقات بين الأفراد فحسب بل إنها تقدم صورة واضحة حول قضايا اجتماعية وسياسية⁵.

¹ هو العلامة إبراهيم بن محمد السوسي، أخذ عن علماء فاس ومراكش والسوس، وعمل في الزاوية الدلائية، ثم سافر إلى المشرق، وكان من المهتمين بالعلم وعلماء عصره، توفي بالحجاز سنة 1077هـ/1667م؛ انظر: المحي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج1، دار صادرة، بيروت، لبنان، دن، ص 44-45.

² لقد كتب أبو بكر السوسي الرسالة عند لقائه بالمقري في الحجة الحرام لسنة 1036هـ/1627م؛ انظر: غويني، المرجع السابق، ص236

³ - نفس المرجع، ص237.

⁴ - نفسه.

⁵ - غويني، المرجع السابق، ص 238.

ب- تبادل الكتب:

تعتبر مناسبة الرحلة العلمية والحجبة فرصة لعملية التبادل، حيث كان الحجاج المغاربة يتبادلون الكتب في محطات رحلاتهم ذهابا وإيابا ومن الأمثلة، نذكر: الرحالة العياشي الذي تبادل الكتب والكراريس مع علماء الجزائر سواء عند مروره بالفضاء الجزائري أو حين لقيهم في مصر والحجاز¹، ويذكر العياشي أيضا أنه تبادل مع الشيخ محمد بن إبراهيم الكراسية التي جمع فيها العياشي معاني الشرطية وكراسة التي سماها "تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية"، بالمقابل أعطاه مجموعة من التأليف².

كما كان يتم إهداء الكتب تعبيرا عن المودة والصداقة الفكرية والتواصل الثقافي، أو رغبة في التقرب للمُهدى إليه سواء كان حاكما أو وزيرا أو أحد العلماء وساهم إهداء الكتب في توطيد العلاقة بين أهل العلم، إضافة إلى ما سبق ذكره؛ فقد عمل العلماء على نقل كتبهم معهم في رحلاتهم وتنقلاتهم مما أتاح الفرصة لطلبة العلم الاستفادة من تلك المكتبة المتنقلة، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر العالم عبد الرحمن الجامعي الذي نقل معه مكتبته إلى الجزائر بما احتوته من كتبه ومذكراته وأشعاره³.

¹ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 295.

² - أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية 1661-1663م، تحقيق سعيد الفاضلي، سليمان القرشيمج¹، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ضبي- الإمارة العربية المتحدة، 2006م، ص 121.

³ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 295.

الخاتمة

تستخلص مما سبق:

أن كل من الجزائر، تونس وطرابلس عرفت مع انضمامها للدولة العثمانية، تطورا ملحوظا، كان نتيجة لعدة معطيات منها:

- الاستقرار السياسي الذي أصبح يخضع لنظام الحكم المركزي، فقد أصبح لها مقرّ للسلطة ونظام يسهر على تسيير مختلف المنشآت السياسية والدينية والثقافية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، وتعمل على حماية الإيالات من أي خطر خارجي.
- توسع النشاط التجاري بفضل الغزو البحري، وفتح الطرق التجارية التي عم الأمان بها، مما زاد في عدد الأسواق بالمدن.
- تعايش الأهالي المحليين في الحواضر الكبرى والمدن خاصة مع الفسيفساء الجديدة من العناصر البشرية، وتزواج ذوقهم في الحياة اليومية، حيث ظهرت العمارة بالطابع المحلي والأندلسي والموريسكي والعثماني، كما ظهرت أطباق وأذواق الأكل المختلفة وفي الألبسة أيضا ظهر التمازج وفي العادات والتقاليد والموسيقى وغيرها من المظاهر الاجتماعية التي أصبحت تعكس بصمة خاصة الذوق المختلف للعناصر البشرية المتعايشة مع بعضها.

الملاحق

الوثيقة الثانية: الرسالة التي أرسلها أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519 يعرضون فيها رغبتهم في ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية. (أرشيف قصر توب كابي سراي، إستانبول. رقم: 6456). وهذا نصّ ترجمتها :

رسالة القاضي والخطيب والفقهاء والأئمة والتجار والأمناء وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة

إننا ندعو بالسعادة والنصر لمقام السلطنة العلية. دعاء يبلغها أقصى الأماني، فإن عييدها بالجزائر يكتبون إلى مقامها العالي معبرين ومعترفين. وإن رسالتنا هذه لا تستطيع أن تستعرض كل الأسرار. وإن سعادة أيامكم هي قوتنا. ونحن لزام أموركم وطاعتكم مستبشرين وعليكم لا محالة اعتمادنا. فقد أطعنا أمركم، وعبيدكم ليس لهم غير جنابكم، يرفعون إليه غاية الإجلال والتقدير وليس لهم قصد غير شريف مقامكم العالي.

لقد جرت حوادث جليلة، ولها أخبار طويلة في نصر المؤمنين وهزيمة أعداء الله. ومفادها أن طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الأندلس انتقلوا منها إلى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد. غير أنه بعد استيلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة وسط الدائرة. وبقينا كذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب. ولكن تمسكنا بحبل الله المتين، واتكلنا عليه. غير أن طائفة الطاغية شددت علينا الطلب هادفة إدخالنا تحت ذمته. وقد نظرنا في الأمر ورأينا أن المحن والشدائد تشتد وأن الضرورة تقضي بحقن دماء أنفسنا وخفوا على حريمنا وأموالنا وأولادنا من السبي

والتفريق تصالحنا مع أهل التثليث، وإنا لله وإنا إليه راجعون.
وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار إلى وهران وبجاية
وطرابلس. وكان قصدهم أن يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسرونا
ويشتتون شملنا فجأة.

آنذاك قدم ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهد في سبيل الله
أوروج باي مع ثلة من الغزاة. فقابلناه بالعز والإكرام واستقبلناه لأننا
كنا في خوف من عدونا فخلصنا بفضل الله. وأوروج باي المشار إليه
جاءنا من تونس لإنقاذ بجاية من يد الكفار (واتصل) بالمسلمين. فلما
وصل إلى القلعة وحاصرها مع المجاهد الفقيه الصالح أبي العباس
أحمد بن القاضي زلزلوا أركانها وهدموا بنيناها وشاهد الكفار عندما
دخل المسلمون القلعة، وهاجموهم واستولوا عنوة على برج منها،
اختلال بنيانهم وقرب حتفهم.

لقد حارب المسلمون الكفار آناء الليل وأطراف النهار، من
طلوع الشمس إلى غروبها. وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة
أروج القتال بقي المشال إليه يقاتل الكافر مع جماعة قليلة. وكان قد
عزم على لقائنا غير أنه وقع شهيدا في حرب تلمسان.

وقد حل مكانه أخوه المجاهد في سبيل الله، أبو التقى خير
الدين. وكان له خير خلف، فقد دافع عنا ولم نعرف منه إلا العدل
والإنصاف واتباع الشرع النبوي الشريف. على أن محبتنا له خالصة،
ونحن معه ثابتون. كيف لا نحبه وهو المشر على مساعد الجد
والإقدام.

ومفاد ما يريد عبيدكم إعلامه لمقامكم العالي هو أن خير الدين

كان قد عزم قصد جنابكم العالي، إلا أن عرفاء البلد المذكورة رفعت أيديها متضرعة إليه حتى لا يرتحل خوفا من الكفار إذ هدفهم هو النيل ونحن على غاية الضعف والبلاء.

لهذا أرسلنا إلى بابكم العالي الفقيه العالم المدرس سي أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية. وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق في خدمة مقامكم العالي. وأن المذكور حامل المكتوب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هذه البلاد من حوادث والسلام.

أوائل ذي القعدة 925هـ

انظر: دراج، المرجع السابق، ص ص 413-415.

الملحق رقم (02): انضمام الجزائر للدولة العثمانية.

«ثم عزم خير الدين السفر إلى إقليم الروم لأجل غزو مواصلة الجهاد، وجمع أهل الجزائر من العلماء والصلحاء، وقال لهم (إني قد عزمت على السفر إلى حضرة السلطان وأمنت بلادكم من العدو بما تركت عندكم من العدة، لأني تركت في بلادكم أكثر من أربعة مائة مدفع، ولم يكن في بلادكم مدفع واحد)، فقالوا كلهم له: (أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ولا نسمح لك بذلك فالله الله أمة سيدنا محمد فإن الله يسألك عنهم)، ومن جملة ما خاطبه العلماء به أن قالوا له: (أيها الأمير، يتعين جلوسك في هذه المدينة لأجل حراستها والذب عن ضعفاء أهلها ولا رخصة لك في الذهاب عنهم وتركهم عرضة للعدو)، فعند ذلك قال لهم من خير الدين (انتم رأيتم ما وقع من الملاحين الكافرين ولا يؤمن من عوالمهم وقد ظهر لي من الرأي أن نصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا السلطان سليم فيمدنا بالمال والرجال وجميع ما نحتاج إليه من آلة الجهاد ولا يكون ذلك إلا بصرف الخطبة إليه وضرب السكة عليه)، فرضي أهل المدينة بذلك وصوبوا رأيهم في فأمرهم أن يكتبوا على لسانهم كتابا يتضمن مفهوم كتابهم، وعين أربعة أجفان للسفر إلى دحضيرة السلطان، وقد عليه رجلا اسمه الحاج حسين، ووجه معه هدية عظيمة. فوصلت الأجفان إلى حضرة السلطان سليم، ونزلوا بتلك الهدية إلى الوزير الأعظم، فأعلم السلطان بقدمهم وواصل إليه الهدية التي قدموا بها، فقبلها السلطان، وأمر بإنزالهم إلى دار الضيافة وأجرى عليهم النفقة ووجه صحبتهم سنجقا وكتابا إلى أهل الجزائر يقول ما كتبوا إليه، وأنهم ممن تشملهم عنايته وتحرسهم رعايته، فلما وصل الحاج حسين الوزير بكتاب السلطان سليم إلى الجزائر، استقر خير الدين أميرا بالجزائر من قبل السلطان الأعظم سليم خان وصرف دعوتها إليه وأمر بذكره على منابرها وضرب السكة عليه».

انظر: محمد بن رقية التلمساني، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم 1626.

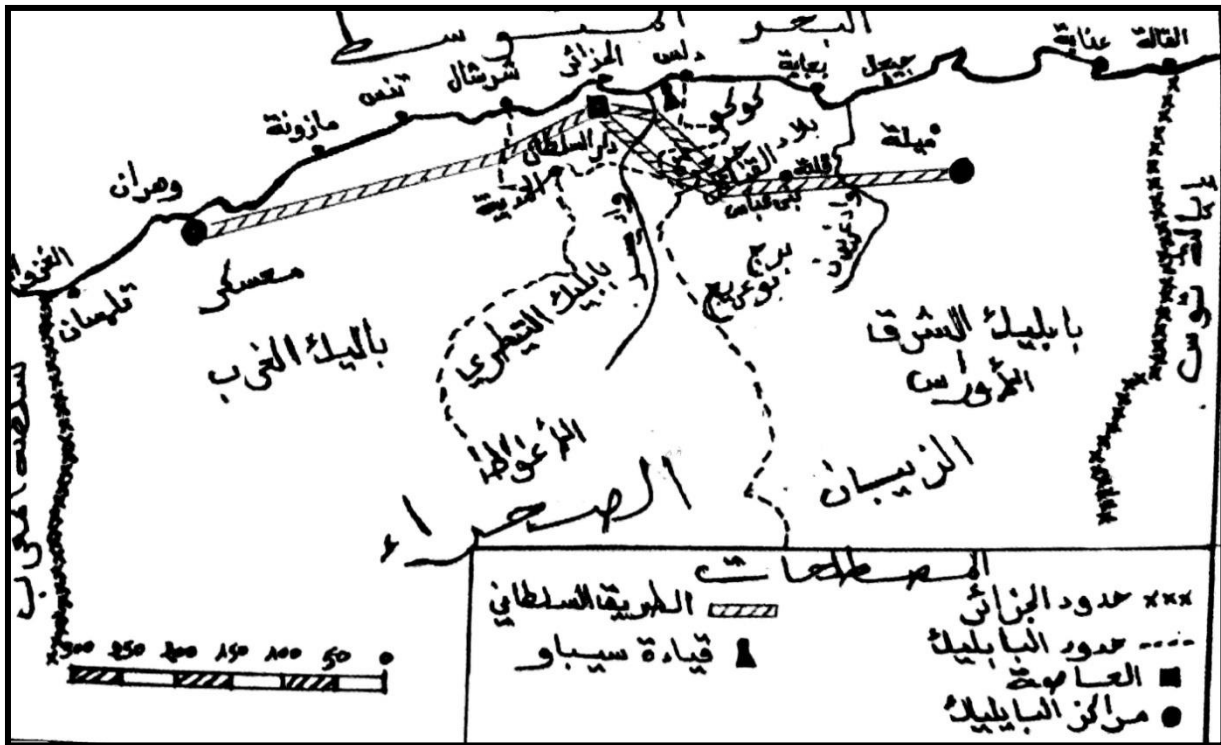
الملحق رقم (03): نص مصدري - مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية

«قال المؤرخ رحمه الله : لما ضعف أمر بني مرين في أوائل المائة التاسعة، عن تفقد أحوال رعيّتهم في الأقطار الشاسعة... وقصرت أنظارهم وانقطعت أخبار محاسنهم... واشتغلوا بالإلتهام في المستلذات، ومصاحبة الغفلة عن الأمور المهمات، وكانت الهدنة فيما بينهم، أذهبت بأسهم وبينهم، وهم مع ذلك متفرقون في نواحي البلاد، متمسكون بمجانبة الأقطار البعاد، فعاشوا بالكفاية والقناعة، ورضوا باليسير من الطاعة فلا يتحاسدون في الولاية ولا يتنافسون في الجراية ولا يجرون في الجباية، على الأخلاص للراحة متعكفين، فكانت الرعية لا ييغون لذلك عنهم حولا، ولا يرضون بغيرهم بدلا وطالت الفترة على هذه الحالة واستقرت على القاصي والداني حلت واستقرت، قام عليهم السعديون واستظهروا بأنهم مهديون فنصبوا لإزالة دولتهم شبائك الحيل والبدع، وتمسكوا لاذهابها بجبال العدوان والخذع، فأذلوا عزها وانتبهوا بزها وأباحوا حرمتها، واستباحوا نعمتها واغتنموا فيها الفرصة، وجرعوها مرارة الغصة وافقدوا الموجود فيها بالرمس، فأصبحت حصيدا كان لم تكن بالأمس، وكانوا ينتجون لشرفاء السوس وقرارهم تاكمدارت من بلاد درعة وبها مولدهم ونشأهم وسكنى آبائهم وأجدادهم وأول قائم منهم بهذا الأمر الأخوان مولاي محمد الشيخ وأخوه أبو العباس مولاي أحمد الأعرج... والسبب في (ظهور سلطانهم وقيامهم بالأمر) أنه لما ظهر الجهاد على دار النصرى بسوس وكان أهل السوس مرابطين عليها وكل من صحت نيته من الناس وقويت رغبته في الجهاد وإعلاء كلمة الله تعالى كان يرد عليهم بصد الرباط من جميع النواحي وبنو مرين يمدونهم بالإعانة والمال والعدة وطالت الحروب سنين كثيرة مع النصرى وكان ممن توجه للجهاد من بلاد درعة الإخوان المذكورين مولاي محمد الشيخ ومولاي أحمد الأعرج... ومازال الإخوان المذكوران قائمين بوظيفة الجهاد إلى أن صار من رؤساء المجاهدين فناداهم الوقت إلى الأمر والنهي فأتوا إلى المريني لحضرة مراكش فتلقاهم بخير وأقبل عليهم لأجل قيامهم بوظيفة الجهاد وملازمة الرباط فأعطاهم فيولا وعدة كثيرة وبالع في إكرامهم ورجعوا إلى جهادهم... وكانت بينهم وبين النصرى وقائع عديدة ومشاهد شديدة واشتهرت فيما ذكرهم وعلا فيها صيتهم وأمرهم فصاروا يكتبون إلى القبائل يدعونهم إليهم ويحرضونهم على الجهاد... و دأبوا على ذلك إلى أن أخذوا دار النصرى غلبوهم عليها وأخرجوهم فاستقام لهم الأمر واتتهم القبائل يهنونهم على دار النصرى التي أخذوها ويساعدونهم في أمورهم التي أرادوها وتوجهت الناس فكثرت حشودهم وعظمت جموعهم فرحفوا إلى ناحية مراكش بعد حروب كثيرة... فعند ذلك تطفن

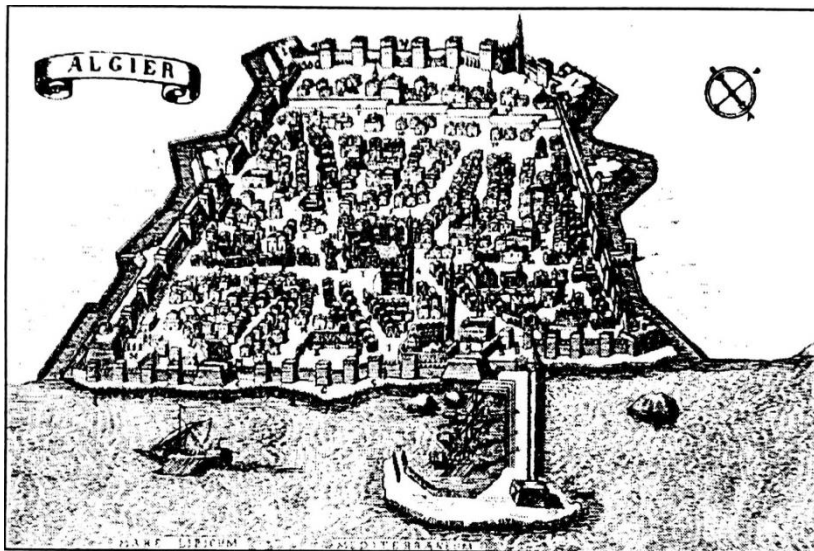
المريني لما يطلبون بعد أن فاته محل التدارك بقطع ما فيه يرغبون فزحف إليهما بمجموعة من مراكش فالتقى الجمعان على جبل درن ووقعت بينهما حروب عظيمة انهزم فيها المريني وتخلّى لهما عن مراكش وحبس في تادلا بما معه من مجموعة».

انظر: مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية، نشره جورج س. كولان- الرباط 1934، ص 2-5.

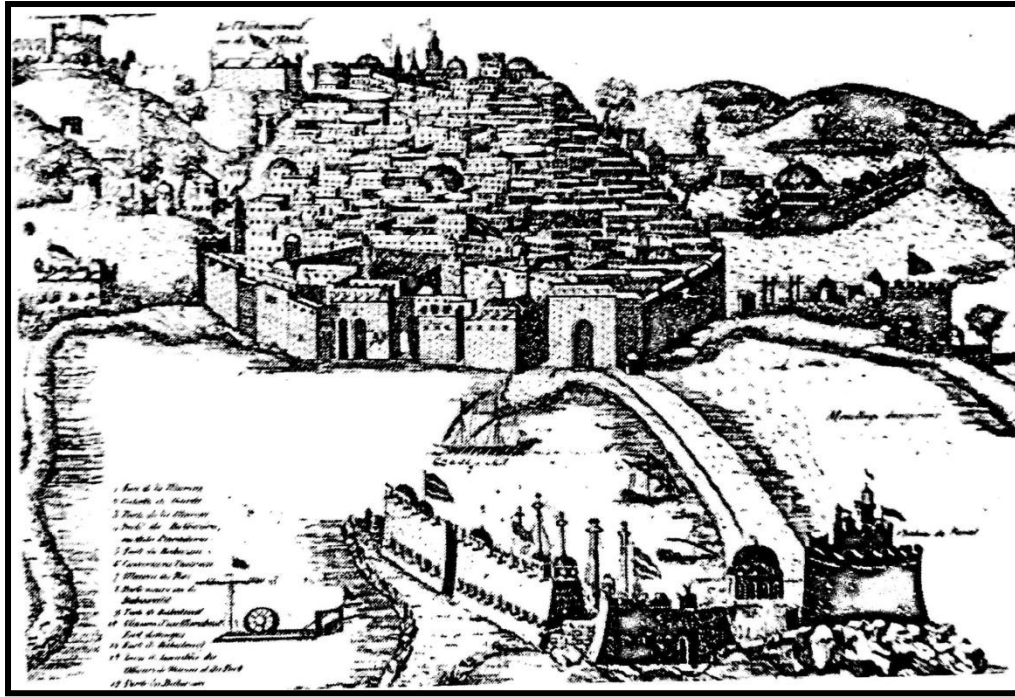
الملحق رقم (04): بعض الخرائط التي تفيد الوحدة



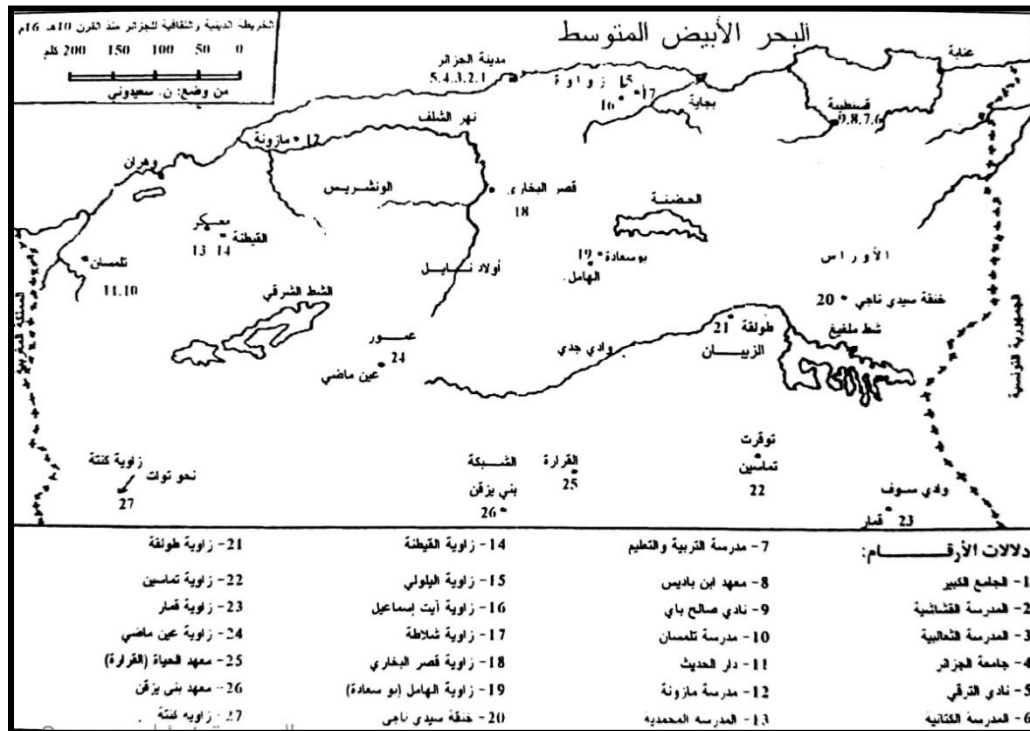
خريطة تمثل التقسيمات الإدارية لإيالة الجزائر خلال العهد العثماني



مدينة الجزائر في القرن السادس عشر



مدينة الجزائر خلال القرن الثامن عشر



انظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج10، ص ص 329، 355، 356؛ بومولة نبيل، صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني إمارة المقرانيين في القرن 10 هـ/ 16م، د ط، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص 186.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر:

- (1) مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمдарتية، تحقيق، عبد الرحيم بنحادة، ط1، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش المغرب الأقصى، 1994م.
- (2) مجهول، كتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، ضبط وتعليق الفريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة والنشر، القاهرة- مصر، 2002م.
- (3) مجهول، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، ط2، دار طليطلة، الجزائر، 2015م.
- (4) ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل، روضة النسرین في دولة بني مرین، دط، المطبعة الملكية، الرباط، 1382هـ/ 1962م.
- (5) الأفراني، محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي، تصحيح هوداس، مطبعة لير، باريس- فرنسا، 1888م.
- (6) --- ، صَفْوَةُ من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، ط1، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء- المغرب، 1425هـ/ 2004م.
- (7) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة، الجامع الكبير المعروف بسنن الترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، 6 أجزاء، ج4، د ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1998م.
- (8) التمكروطي، أبو الحسن علي بن محمد، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط- المملكة المغربية، 1423هـ/ 2002م.
- (9) التنسي، محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تح: محمود بوعباد، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1405هـ/ 1985م.
- (10) ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، د ط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، 1421هـ/ 2000م.
- (11) ابن أبي دينار القيرواني الرعيني، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم، المونس في أخبار إفريقية وتونس، ط3، دار المسيرة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، 1993م.

- (12) الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحديّة والحفصيّة، تحقيق محمد ماضور، دط، المكتبة العتيقة، تونس، د ت.
- (13) الزباني، محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، اعتناء عبد الرحمن دويب، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، المحمدية-الجزائر، 2013م.
- (14) سبنسر، وليام، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبادية، د ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.
- (15) السلاوي الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى، الدولة السعدية، ج6، تحقيق ولديّ المؤلف، جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء- المملكة المغربية، 1418هـ / 1997م.
- (16) ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من وزارة شؤون الثقافة، 4 مجلدات، 8 أجزاء، مج4، ج7، د ط، الدار العربية للكتاب، د م ن، 1999م.
- (17) العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد، الرحلة العياشية 1661-1663م، تحقيق سعيد الفاضلي، سليمان القرشيم، ج1، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ضبي- الإمارة العربية المتحدة، 2006م.
- (18) القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي، أحمد التوفيق، ج2، د ط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرابط- المملكة المغربية، 1397هـ / 1977م.
- (19) ابن القاضي، أبو العباس أحمد، ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمد أبو النور، ج1، دط، دار التراث، المكتبة العتيقة، القاهرة، تونس، د ت.
- (20) ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد بن حسين، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م.
- (21) ---، أنس الفقير وعز الحقيق، تحقيق محمد الفاسي، أدولف فور، د ط، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، المغرب، 1965م.
- (22) كرنجال، مرمول، إفريقيا، جزآن، ج2، ترجمة محمد حجي، وآخرون، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرابط- المغرب الأقصى، 1989م.
- (23) المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج1، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت.

(24) ابن مرزوق الجد التلمساني، محمد، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1402هـ/ 1981م.

(25) المقرئ التلمساني، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج4، تحقيق إحسان عبّاس، دط، دار صادر، بيروت- لبنان، 1408هـ/ 1988م.

(26) ---، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا، وآخرون، ج1، دط، المعهد الخلفي للأبحاث المغربية بين المغرب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، المغرب الأقصى، القاهرة- مصر، 1358هـ/ 1939م.

(27) ابن ميمون الجزائري، محمد، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ط1، دار الوعي للنشر والتوزيع، روية- الجزائر، 1439هـ/ 2018م.

(28) النائب الأنصاري، أحمد بك بن الحسين، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، د ط، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب- ليبيا، د ت.

(29) ---، نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني لنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، 1994م.

(30) الورثيلائي، الحسين بن محمد، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثيلائية، مطبعة بيبير فونتانا، الجزائر، 1326هـ/ 1908م.

(31) الوزان الفاسي، حسن بن محمد، وصف افريقيا، تحقيق محمد حجي، جزآن، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1983م.

(32) الونشريسي التلمساني الماكي، أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد، أسنى المتاجر وبيان أحكام من غلب على وطنه النصاري ولم يهاجر وما ترتب عليه من العقوبات والزواج، تحقيق حسين مؤنس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1986م.

ثانيا- المراجع:

(1) إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة خليفة محمد التليسي، ط2، الدار العربية للكتاب، الاسكندرية- مصر، 1991م.

- (2) الأرقش لندة، وآخرون، المغرب العربي الحديث من خلال مصادره، مركز النشر الجامعي، ميدياكم، 2003م.
- (3) الأرقش دلندة، جمال بن طاهر عبد الحميد الأرقش، المغرب العربي الحديث من خلال مصادره مركز النشر الجامعي ميدياكوم، 2003م.
- (4) أشرف صالح محمد سيد، أصول التاريخ الأوربي الحديث، ط1، دار واتا للنشر الرقمي، الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، الكويت، 2009م.
- (5) إلتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، 1989م.
- (6) الإمام، رشاد، «سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814»، المجلة التاريخية المغربية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ع 6، زغوان-تونس، 1976م.
- (7) انساعد، سميرة، أدب الرحلات الحجازية النثرية في الجزائر من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الهجري (القرن 17-19م)، مذكرة ماجستير، 2000-2001م.
- (8) إينالجيك، خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد أرناؤوط، ط1، دار المدار الإسلامي، بنغازي-ليبيا، 2002م.
- (9) بازامة مصطفى، ليبيا في عشرين سنة من حكم الإسبان (1510-1530)، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1965م.
- (10) بلحميسي، مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة أحمد زبانة، الجزائر، 1981م.
- (11) بن خروف، عمار، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/السادس عشر ميلادي، ج1، دار الامل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م.
- (12) بن موسى، تيسير، المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني دراسة تاريخية اجتماعية، دار العربية للكتاب، ليبيا، 1988م.
- (13) بن يوسف، مفيدة، الجالية الأندلسية بالجزائر وتأثيراتها الحضارية على المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني القرنين السادس عشر -السابع عشر، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر 2 بوزريعة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم تاريخ، 1010-2011م.

- 14) البهنسي، صلاح أحمد، طرابلس الغرب دراسات في التراث المعماري والفني، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة- مصر، 2004م.
- 15) بومولة، نبيل، صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني إمارة المقرانيين في القرن 10هـ/ 16م، د ط، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
- 16) التازي، عبد الهادي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، ج3، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، 1973م.
- 17) التليسي خليفة محمد ، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ط3، الدار العرب للكتاب، ليبيا، 1997م.
- 18) التميمي، عبد الجليل، «الدولة العثمانية والقضية الموريسكية»، المجلة التاريخية المغربية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ع 23- 24، زغوان- تونس، 1988م.
- 19) ---، «أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر للسلطان سليم الأول 1519»، المجلة التاريخية المغربية، مؤسسة التميمي زغوان ع 6، 1976م.
- 20) ---، دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن السادس عشر، ط1، منشورات مؤسسة التميمي البحث العلمي والمعلومات، تونس، 2009م.
- 21) جان كلودزليتنز، طرابلس ملتقى أوروبا وبلدان وسط إفريقيا 1500-1795 إنجليزي، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي- ليبيا، 2001م.
- 22) جلال يحيى، أوروبا في العصور الحديثة، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية- مصر، 1981م.
- 23) حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ عرض لأحداث المغرب وتطوراتها في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الإسلام إلى العصر الحاضر (ق 14هـ و20م)، 3 أجزاء، ج2، من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين، دط، دار الرّشاد الحديثة، الدار البيضاء- المملكة المغربية، 1420هـ/ 2000م.
- 24) خوجة، حسن، ذيل البشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق الطاهر المعمرى، الدار العربية للنشر، ليبيا، تونس، 1975م.
- 25) بن خوجة، محمد، صفحات من تاريخ تونس، تحقيق حمادي الساحلي، الجيلاني بن الحاج يحيى، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت- لبنان، 1986م.

- (26) دراج، محمد، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512-1543)، ط2، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
- (27) دون باسكوال بورونات اي برتشيا، الموريسكيون الإسبان وواقع طردهم، ترجمة كنزة الغالي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2012م.
- (28) رمون، أندريه، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، ط1، القاهرة، 1991م.
- (29) الزاوي الطرابلسي، الطاهر أحمد، معجم البلدان الليبية، ط1، مكتبة النور، طرابلس، 1968م.
- (30) الساحلي، خليل، «وثائق عن المغرب العثماني أثناء حرب مالطة سنة 1565»، المجلة التاريخية المغربية، ع7-8، زغوان- تونس، جويلية 1977م.
- (31) سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط6، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي- الجزائر، 2009م.
- (32) ---، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري 16-20م، ج1، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.
- (33) سعيدوني، ناصر الدين، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب) من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي، جامعة الكويت، قسم التاريخ كلية الآداب، رسالة 318، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الحادية والثلاثون، فصلية علمية محكمة تصدر عن المجلس العمي جامعة الكويت 2010/1431م.
- (34) ---، من التراث التناريخي والجغرافي للغرب الإسلامي "تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين"، جزء واحد ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1999م.
- (35) ---، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2009م.
- (36) ---، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 2003م.

- (37) السنيدي، عبد العزيز بن راشد، معجم ما أُلِفَ عن الحج تاريخه - مناسكه - تنظمه - طريقه - الرحلات إليه، دط، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1423هـ / 2001م.
- (38) الشاذلي، عبد الطيف، المجاهد السلاوي محمد بن أحمد العياشي، من تاريخ المغرب في القرن السابع عشر، ط2، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس مطبعة الأمنية، الرباط - المملكة المغربية، 2012م.
- (39) الشريف، محمد الهادي، تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، ط3، دار سراس للنشر، تونس، 1993، ص ص 77-81؛ الأرقش، وآخرون، المرجع السابق.
- (40) الشطشاط، علي حسين، نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، 2001م.
- (41) شويتام، أرزقي، «العلاقات الثقافية الجزائرية المغاربية (الفترة العثمانية)»، مجلة الدراسات التاريخية، ع13، جامعة الجزائر2، 1433هـ / 2011م.
- (42) ---، مجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 926-1246 / 1519-1830م، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009م.
- (43) صاري أمينة سليمة، قالم مباركة، أحمد بن قنفذ القسنطيني حياته وآثاره (740-810هـ / 1339-1407م) دراسة من خلال كتابه الوفيات، ط1، وزارة الثقافة في إطار تظاهرة قسنطينة عاصمة الثقافة العربية، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015م.
- (44) صنديد، ياسين، الأسرة الحسينية ودورها في العلاقات السياسية والاقتصادية بين تونس وفرنسا (1117-1197هـ / 1705-1782)، مذكرة ماجستير، تخصص تاريخ حديث، جامعة غرداية، 2012-2013م.
- (45) عادل سعيد بشاوي، الأندلسيون المواركة، مطبعة مطابع انترناشيونال برس، القاهرة - مصر، 1983م.
- (46) عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، ج1، د ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997م.
- (47) عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية (دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية، ط3، منشورات المؤرخين المغاربة، الرباط - المغرب الأقصى، 2006م.

- (48) عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنتصرون المورييسكيون الأندلسيون، صفحة مهمة من تاريخ المسلمين في الأندلس، ط 1، دار الصحوة، القاهرة- مصر، 1991م.
- (49) العروسي المطوي، محمد، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، د ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، 1406هـ / 1986م.
- (50) علي مفتاح إبراهيم منصور، تاريخ ليبيا الثقافي والديني والاجتماعي من خلال الرحالين العرب والأوروبيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر 1700-1900م، ج 1، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2006-2007م.
- (51) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث، د ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية- مصر، 1992م.
- (52) عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط 1، مطبعة مصر، القاهرة، 1949م.
- (53) غالب، نجم الدين، مدينة طرابلس عبر التاريخ، ط 2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978م.
- (54) غطاس، عائشة، الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830م)، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، 2000-2001م، مطبوعة.
- (55) غطاس عائشة وآخرون، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م.
- (56) غلاني السبتي، «دور البحرية الجزائرية والعثمانية في إنقاذ مسلمي الأندلس 1492-1640م»، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة باتنة، ع 14، الجزائر، 2015م.
- (57) غويني، ليلي، التفاعل الثقافي بين الرحالة الجزائريين وعلماء المغرب العربي خلال العهد العثماني، شركة الاصاله والنشر، الجزائر 2016.
- (58) فكاير، عبد القادر، الصراع الجزائري الاسباني، دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع والطباعة، الجزائر، 2016م.
- (59) ---، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث العهد العثماني 1518-1830، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة- الجزائر، 2018م.

- (60) فلوح، عبد القادر، العلاقات الجزائرية - العثمانية، في الفترة (1233 - 1246 / 1818 - 1830) على ضوء وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية، مذكرة ماجستير، في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2، 2009-2010م.
- (61) قاسم، أحمد، إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوي ابن عظم (1574-1600م)، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، أوت 2004، ص 189-192.
- (62) ---، «مدينة تونس في العهد العثماني من خلال الوثائق»، المجلة التاريخية العربية لدراسات العثمانية، ع 19، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكسة والتوثيق والمعلومات، زغوان - تونس، 1994م.
- (63) الكامون مولاي أحمد، هاشم السقلي، التأثير الموريسكي في المغرب، ط1، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، المغرب الأقصى، 2010م.
- (64) الكتّاني، محمد عبد الحي بن عبد الكبير، وقفات في حياة الحافظ أحمد بن محمد المقرئ، تحقيق عبد القادر سعود، ط1، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط - المملكة المغربية، 1438هـ / 2017م.
- (65) كمالي، إسماعيل، سكان طرابلس الغرب، تعريب وتعليق حسن الهادي بن يونس، الدار الوطنية للكتب طرابلس، 1997.
- (66) كمالي، إسماعيل، سكان طرابلس الغرب، تعريب وتعليق حسن الهادي بن يونس، الدار الوطنية للكتب طرابلس، 1997.
- (67) الكيب، نجم الدين غالب، مدينة طرابلس عبر التاريخ، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978م.
- (68) محمد إبراهيم سليم، ديوان الإمام الشافعي المسمى الجوهر النفيس في شعر محمد بن إدريس، د ط، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة - مصر، د ت.
- (69) المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، مطابع دار البعث، قسنطينة، الجزائر، د ت.
- (70) مظهر، علي، محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها وفيه آخر صفحة لتاريخ المسلمين بالفردوس الاسلامي المفقود، المكتبة العلمية، دار الطبعة، مصر، 1947م.

71) المؤذن، عبد الرحمن، البوادي المغربية قبل الاستعمار (قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والثاسع عشر)، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النّجاح الجديدة، الدار البيضاء- المغرب الأقصى، 1995م.

72) نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، رسالة دكتوراه، تخصص التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية 1987م.

73) نّوار عبد العزيز سليمان، محمود محمد جمال الدّين، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، د ط، دار الفكر العربي، مدينة نصر- مصر، 1999م.

74) نيكولاي ايايتش بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، ترجمة عماد حاتم، ط2، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- لبنان، 2001م.

75) يحياوي، جمال، سقوط غرناطة ومآساة الأندلسيين 1492-1610م، دط، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة- الجزائر، 2009م.

ثالثا- المراجع باللغة الأجنبية:

- 1) A.Masmoudi et M.Smida, **Tunis au XVI siècle de la chute des Hafside à l'installation des turcs**, société tunisienne de diffusion, Tunis, 1983.
- 2) Braudel Fernand, **La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Louis philippe 2**, T2, Paris, 1966.
- 3) Charles André Julien, **Histoire de L'Afrique du Nord des origines à 1830**, Paris, 1951, T2.
- 4) Giles Veintin, **Aperçus sur l'entrée de l'île de Djerba dans l'orbite ottomane** in RH,M n°31-32, Tunis, 1983.
- 5) Robert Mantran, **Les grandes dates de l'Islam**, Entreprise Nationale du livre, Larousse, Paris, 1990.
- 6) Touati Houari, **Islam et voyage au Moyen Age**, édition du SEUIL, PARIS, 2000,.

3.....	مقدمة:
7.....	المحور الأول: سقوط غرناطة وانعكاساته على الدول المغاربية.
8.....	1. الأوضاع العامة للأندلس قبل سقوط غرناطة.
11.....	2. أهم المتغيرات التي عرفتتها إسبانيا مع نهاية القرن الخامس عشر.
13	3. تداعيات سقوط غرناطة على بلدان المغرب.
	 المحور الثاني: أوضاع الدول المغاربية في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر
18.....	الميلادي.
19	1. الوضع الداخلي لبلدان المغرب مع نهاية القرن الخامس عشر (الانقسامات الداخلية)
23.....	2. أوضاع بلدان المغرب في ظل حركة الاحتلال الإسباني - البرتغالي.
	 المحور الثالث: المد العثماني إلى الحوض الغربي للمتوسط.
25.....	1. الملامح العامة لأوضاع الدولة العثمانية مع مطلع القرن 16م.
26	2. ظهور الإخوة برباروس في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.
31.....	
	 المحور الرابع: ظروف إحقاق الدول المغاربية (الجزائر، طرابلس، تونس) بالدولة العثمانية.
34.....	1. ظروف إحقاق الجزائر بالدولة العثمانية.
35.....	2. طرابلس الغرب.
36.....	3. ظروف إحقاق تونس بالدولة العثمانية.
37.....	
	 المحور الخامس: تطور نظام الحكم في الجزائر خلال الفترة العثمانية.
39.....	1. مرحلة البايلربايات (1519-1587م).
40	2. مرحلة الباشوات (1587-1659م).
41	3. مرحلة الآغاوات (1659-1671م).
41	4. مرحلة الدايات (1671-1830م).

المحور السادس: تطور نظام الحكم في المغرب الأقصى في فترة السعديين والعلويين.....	43
1. الدولة السعدي.....	44
2. قيام الأسرة العلوية.....	48
المحور السابع: تطور نظام الحكم بتونس.....	50
1. نظام الباشوات والداي.....	51
2. الأسرة المرادية والحسينية.....	52
المحور الثامن: تطور نظام الحكم في طرابلس.....	54
1. مرحلة العهد العثماني الأول (1551-1711م).....	55
2. مرحلة حكم الأسرة القرمانلية (1711-1835م).....	55
3. العهد العثماني الثاني (1835-1911م).....	56
المحور التاسع: العلاقات المغاربية الخارجية (المشرق العربي، إفريقيا، أوروبا).....	57
1. العلاقات الاقتصادية والتجارية.....	59
2. العلاقات الدبلوماسية.....	61
3. العلاقات العسكرية.....	63
المحور العاشر: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلدان المغرب الحديث.....	65
1. الحياة الاجتماعية.....	66
2. التركيبة الاجتماعية لبلدان المغرب.....	68
3. الحياة الاقتصادية.....	69

76.....	المحور الحادي عشر: العلاقات المغاربية الثقافية.
77.....	1. عوامل التواصل الثقافي بين بلدان المغرب.
82.....	2. ملامح الاحتكاك الثقافي بين العلماء المغاربة .
90.....	الخاتمة.
92.....	الملاحق .
102.....	قائمة المصادر والمراجع.